سيمون دو بوفوار

الصور الجميلة

رواية

ترجمة: عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل الأول

قالت جيزيل دوفرين : « إن اكتوبر هذا .. شهر استثنائي » ، فيوافقون، ويبلسمون ، وتسقط من السماء الرمادية الزرقاء حرارة صيفية – مـــا الذي لا أملكه مما يملك الآخرون؟– وتلامس أنظارَهم الصورةُ الكاملة التي نشرتها مجلتنا « بلازير دوفرانس »[1] و « فوتر ميزون »[2] : المزرعـة المشتراة بلقمة خبز – لنقل، توضيحاً، لقمة خبز مصنوع بالزبدة والبيض – والتي حوّلها جان – شارل الى مقصورة بما يساوي ثمـن طنّ من الكافيار . (وقد قال جيلبير : « حبذا لو كان الأمر قاصراً على مليون فرنك فقط »!) الورود المعرشة على جدار حجري، الأقحوان ، زهور النجمة ، الأضاليا التي وصفتها دومينيك بأنها « أجمل مـا في « إيل دوفرانس» من أضاليا » ، وهناك البارافان والأرائك الزرق والبنفسجية – أية جرأة ! – التي تتميز عن خضرة عشب الحديقة ، والثلج الذي يرنّ في الكؤوس ، وهودان الذي يقبّل يد دومينيك التي تبدو دقيقة جداً في بنطالهـا الأسود وقميصها الفاقع ، وشعرها المصفرّ الحائر بين الشقرة والبياض ، فكأنهـا في الثلاثين لمن يراها من ظهرها «ليس ثمة من يُحسن مثلك يا دومينيك استقبال الضيوف » (في هذه اللحظة بالذات ، في حديقة أخرى، مختلفة تمام الاختلاف، شبيهة تماماً ، هناك من يقول هذه الكلمات ، وتستقرّ البسمة نفسها على وجـــه آخر : « ما أروعه يوم أحد ! » لماذا تراني أفكر بهذا ؟)

كان كل شيء ممتـازاً : الشمس والنسيم ، المشواة ، وقطع اللحم السميكة ، والخضار ، والفاكهة ، والخمور . وقـــد روى جيلبير حكايات أسفار وصيد في

---

١ – تعني « بهجة فرنسا » . (هامش المترجمة)
٢ – تعني « بيتك » . (هـ.م.)

كينيا ، ثم استغرق في لعبة الأخشاب هذه اليابانية التي كان باقياً عليه أن يضع ست قطع منها في مواضعها ، واقترحت لورانس « تجربة المهرّب » . ولقد تحمّسوا ، وهم يعشقون أن يندهشوا بأنفسهم وأن يضحك بعضهم على البعض الآخر . لقد أجهدت نفسها كثيراً ، ولذلك فهي تحسّ نفسها الآن مُتعَبة ، إنني دورية .

كانت لويز تلعب مع أولاد عمّها في جوف الحديقة ؛ وكانت كاترين تقرأ قرب المدفأة حيث تشتعل نارٌ خفيفة : إنها تشبه جميع الفتيات الصغيرات السعيدات اللواتي يقرأن ، متمدّدات على سجادة . « دون كيشوت » ، الاسبوع الماضي ، « كانتان دورفار » ، ليس هذا ما يجعلها تبكي في الليل ، فماذا إذن ؟ كانت لويز منفعلة جداً : ماما ، إن كاترين ملتاعة ، فهي تبكي في الليل . إن الأساتذة يروقون لها ، ولها صديقة صغيرة جديدة ، وهي في صحة جيدة ، والبيت في مَرَح .

وقال دوفرين :

– ما زلت تبحثين عن شعارات للدعاية ؟

- يجب أن أقنع الناس بأن يغطّوا جدرانهم بألواح من خشب .

هذا مريح ؛ فحين تغيب ، يظنّ الناس إنها تبحث عن شعارات للدعاية . وكانوا يتحدثون حولها عن محاولة انتحار جان تكسييه . وكان في يد دومينيك اليسرى سيجارة ، وكانت يدها اليمنى مفتوحة ومرتفعة كأنما كانت تتوقع من يقاطعها ؛ وقد قالت بصوتها المتسلط ذي الجرْس الخاصّ : « إنها ليست على قدر كبير من الذكاء ، فزوجها هو الذي صنع لها مهنتها ، ولكن مع ذلك ؛ فإن التي تكون واحدة من النساء الأكثر اشتهاراً في باريس ، لا تتصرف تصرّف الخياطات ! »

وفي حديقة أخرى ، مختلفة كل الاختلاف ، شبيهة تماماً ، قال أحدهم : « دومينيك لانجلوا : إن جيلبير مورتيه هو الذي صنع لها مهنتها . » وهذا غير عادل ، فهي قد دخلت الإذاعة من الباب الصغير ، عام ١٩٤٥ ، ووصلت بقوة قبضتيها وهي تعمل كالحصان ، وتدوس على من كانوا يضايقونها . فلماذا يلذّهم الى

هذا الحدّ أن يحطّم بعضهم بعضاً ؟ وهم يقولون كذلك ، وهذا ما تفكر به جيزيل دوفرين ، إن أمي قد استولت على جيلبير بدافع المصلحة : فلولاه لما استطاعت أن تنعم بهذا البيت وبتلك الرحلات ؛ فليكن ، ولكنّ ما جلبه لها إنما هو شيء آخر ؛ لقد كانت، رغم كل شيء ، حائرة مضطربة بعد أن هجرت أبي (كان يتيه في البيت كروح معذّبة، فرحلت بقسوة هنا أشدها حالما تزوجت مارت) ، وهي بفضل جيلبير إنما أصبحت هذه المرأة الواثقة بنفسها إلى هذا الحدّ . (بالطبع ، يمكن القول ...) .

وعاد هوبير ومارت من الغابة وعلى ذراعيها باقات هائلة من الزهور. وكانت مارت تمشي بخطوة جذلى ، مرتدّة الرأس إلى خلف ، وعلى شفتيها بسمة مسمّرة : قدّيسة ، سكرى بحبّ الرب الفرح ، ذلك هو الدور الذي تمثله منذ وجدت الإيمان . وعادا إلى مكانهما على الوسائد الزرق والبنفسجية ، وأشعل هوبير غليونه وعاودته بسمته ، بسمة المشلول ، وراحته الجسدية . إنه حين يسافر يضع نظارة سوداء : « إنني أعشق السفر متنكّراً » . طبيب اسنان ممتاز يدرس بدقة رهان سباق الخيل . إنني أفهم أن تكون مارت قد اصطنعت لنفسها ألواناً من التعويضات .

قالت دومينيك :

– إنكم في أوروبا لا تجدون في الصيف شاطئاً واحداً تستطيعون أن تتمدّدوا عليه... أما في البرمود ، فهناك شواطيء كثيرة ، تكاد تكون خالية ، ولا يعرفكم فيها أحد .

فقالت لورانس :

– إنه ، ولا عجب ، الثقب الصغير العزيز .

وسألت جيزيل :

– وتاهيتي ؟ لماذا لم تعودوا الى تاهيتي ؟

– كانت تاهيتي عام ١٩٥٥ شيئاً لذيذاً . أما الآن ، فهي أسوأ من سان – تروبيز . إنها تافهة إلى حدّ ...

على بعد عشرين عاماً . كان أبي يقترح فلورنسا وغرناطة ؛ فكانت تقول : « الجميع يقصدونها ، فهما تافهتان إلى حدّ ... » كانت تفضّل أن نسافر ، نحن الأربعة ، في السيارة . كان هو يتنزه بدوننا في أيطاليا واليونان ، وكنا نبيت في الأمكنة الباذخة ، أقصد التي كانت تعتبرها دومينيك في ذلك الوقت باذخة . أما الآن ، فهي تقطع المحيط لتأخذ حماماتها الشمسية .

أما في عيد الميلاد ، فإن جيلبير سيصطحبها لقضاء السهرة في بعلبك ...

وقالت جيزيل :

– يبدو أن في البرازيل بلاجات رائعة ، خالية . وبإمكان الإنسان أن يقفز إلى برازيليا . كم أود لو أرى برازيليا !

وقالت لورانس :

– آه ! لا ! تكفي حتى الآن الشقق المتشابهة في ضواحي باريس ، كم هي متعبة ! فكيف الحال مع مدينة بكاملها على هذا النسق ؟

فقالت دومينيك :

– إنك كأبيك ، من دعاة الماضي .

قال جان – شارل :

– ومن ليس كذلك ؟ إن الناس في عصر الصواريخ والآلية لا يزالون يحتفظون بعقلية القرن التاسع عشر .

فقالت دومينيك :

– هذا ليس شأني .

قال جيلبير بلهجة مقتنعة (أو بالأحرى مفخمة : فهو يقف دائماً على مسافة ما من كلماته) :

– إنك أنت استثنائية في كل شيء .

– على كل حال ، فإن العمال الذين بنوا المدينة هم من رأيي : إنهم لم يريدوا أن يهجروا بيوتهم الخشبية .

فقال جيلبير :

ـ لم يكن لهم الخيار قط ، يا عزيزتي لورانس . فإن ايجارات برازيليـا هي فوق مستوى وسائلهم .

ودوّرت بسمةً خفيفة فمه ، كما لو كان يعتذر من لهجة تفوّقه .

وقال دوفرين :

ـ إن برازيليا قـد تُجُووزت اليوم . فهندستها ما تزال تلك الهندسة التي يملك فيها السقف والباب والجدار والمدخنة وجوداً متميزاً . إن ما يُسمى الآن إلى تحقيقه إنما هو المنزل التركيبي الذي يكون كل عنصر فيـه كثير التعادل : السقف يمتزج بالجدار وينساب في وسط الفناء الداخلي .

كانت لورانس مستاءة من نفسها ؛ لقد نطقت طبعاً بحماقة . هـذا نتيجة التحدث عـن أشياء لا يعرفها المرء . لقـد كانت الآنسة هوشيه تقول : « لا تتكلموا عما لا تعرفونه » . ولكن هذا يعني أن المرء لن يفتح فمه أبداً . وكانت تصغي بصمت الى جان ـ شارل الذي كان يصف مدينة المستقبل . وكان يفتنها ذلك ، من غير أن تعرف تفسيراً لهذا ، تفتنها تلك العجائب القادمة التي لـن تراهـا أبداً بعينيها . لقد فتنها أن تعلم أن إنسان اليوم كان يتجاوز ببضعة سنتمترات إنسان القرون الوسطى ، الذي كان هو نفسه أطول من إنسان مـا قبل التاريخ . وإن من حظهم أن يستطيعوا أن يتحمسوا على هـذا النحو . إن دوفرين وجان ـ شارل يناقشان مرة أخرى ، وبالحميّا نفسها دائماً، أزمة هندسة البناء .

كان جان ـ شارل يقول :

ـ يجب إيجاد اعتمادات ، ولكن بوسائل أخرى . والعدول عن قوة الاقناع معناه السقوط خارج التاريخ .

ولم يجب أحد ؛ ثم ارتفع في الصمت صوت مارت الملهم :

ـ حبذا لو كانت جميع الشعوب توافق معاً على نزع السلاح ! هـل قرأتم الرسالة الأخيرة لبولس السادس ؟

فقاطعتها دومينيك بنفاد صبر :

– لقد أكد لي أشخاص مطلعون تمام الاطلاع أن الحرب إذا نشبت ، فان عشرين عاماً ستكون كافية لتجعل الانسانية تجد نفسها في المرحلة التي هي عليها اليوم .

ورفع جيلبير رأسه ، ولم يكن باقياً له إلاّ أربع قطع من الخشب لوضعها في مواضعها :

– لن تقع حرب . فإن المسافة بين البلدان الرأسمالية والبلدان الاشتراكية لن تلبث طويلاً حتى تمّحي . لأننا الآن نعيش ثورة القرن العشرين الكبرى ، والإنتاج هو أهمُّ من التملك .

واذن فما جدوى إنفاق هذا المال كله في التسلح ؟ هكذا تساءلت لورانس . ولكن جيلبير يعرف الجواب ، وهي لا تريد بعد أن تسمح بأن يُستهزأ بها . والحق أن جان – شارل قد أجاب : إننا ، من غير القنبلة ، سنسقط خارج التاريخ . فماذا يعني هذا تماماً .؟ سيعني بكل تأكيد كارثة . وبدت على الجميع هيئة الحيرة والتململ .

والتفت جيلبير بودّ نحوها :

– ستأتين يوم الجمعة . إنني أريد أن أسمعك مجموعتي الجديدة من آلات انتاج الصوت . Installation haute fidélité .

قالت دومينيك:

– الآلة الشبيهة بآلة كريم والكسندر أمير يوغوسلافيا .

فقال جيلبير :

– إنها حقاً اعجوبة . إن من يسمعها لا يستطيع بعدُ أن يسمع موسيقى من أية آلة عادية .

قالت لورانس :

– إنني اذن لا أريد الاستماع اليها . فأنا أحب كثيراً أن أسمع موسيقى . (الواقع أن هذا غير صحيح ، وإنما أقول ذلك تظرفاً) .

وبدا جان – شارل مهتماً جداً :

– ما هو الحد الأدنى من الثمن لمثل هذه الآلة المتقنة ؟

– الحد الأدنى . الحد الأدنى الدقيق هو ثلاثمئة الف فرنك قديم . ولكني لا أقصد هذا ، لا أقصد هذا على الاطلاق .

فسأل دوفرين :

– الحصول على آلة جيدة حقاً يتطلب إذن زهاء مليون .

– اسمع : إن مضخم الصوت على آلة مونو يكلف ما بين ستمئة الف فرنك ومليون . أما على الستيريو فاحسبْ لها مليونين . وأنا أنصحك بالمونو الذي هو أفضل من ستيريو متوسط. وأما آلتا توسيع الصوت الجيد فتكلفان زهاء خمسمئة الف فرنك .

فقال دوفرين وهو يتنهد :

– هذا ما كنت أقوله : الحد الأدنى مليون .

قال جيلبير :

– هناك طرق أشد بلادة لانفاق مليون فرنك !

فقال جان – شارل للورانس :

– إذا نجح فرني في قضية روسيون ، اشترينا هذا .

والتفت نحو دومينيك قائلاً:

– إن لديه فكرة عظيمة لاقتناء أحد هذه البيوت الاستمتاعية التي تُبنى هناك .

فقال دوفرين :

– إن لدى فرني افكاراً عظيمة. ولكنها لا تتحقق غالباً .

قال جان – شارل :

– سوف تتحقق .

ثم سأل جيلبير :

– هل تعرفه ؟ إن العمل معه ممتع ؛ والمصنع كله يعيش في الحماس . إنهم لا ينفـّذون ، بل يخلقون .

فقطعت دومينيك بقولها :

– إنه أكبر مهندس معماري في جيله ، وهو في الطليعة من التنظيم المدني .

وقال دوفرين :

– إنني أفضل مع ذلك أن أكون عند مونود. هناك لا يخلقون بل ينفذون. غير انهم أكثر ربحاً .

فنزع هوبير غليونه من فمه وقال :

– هذا اعتبار له قيمته .

ونهضت لورانس ، فابتسمت لأمها وقالت :

– هل أستطيع أن أسرق بعض زهورك من الأضاليا ؟

– بكل تأكيد .

ونهضت مارت أيضاً ، فابتعدت مع أختها :

– هل رأيت بابا يوم الأربعاء ؟ كيف حاله ؟

– هو في البيت مرحٌ دائماً . وتغييراً للجوّ ، تخاصم مع جان – شارل .

– إن جان – شارل لا يفهم بابا ، هو أيضاً .

وتطلّعت مارت الى السماء تتفحّصها :

– كم هو مختلف عن الآخرين ! إن بابا يبلغ ، على طريقته ، ما هو خارق . فالموسيقى والشعر هما في نظره صلاة .

وانحنت لورانس على زهور الأضاليا ؛ إن هذه اللغة تزعجها . صحيح أنه يملك شيئاً لا يملكه الآخرون ، ولا أملكه أنا (ولكن ما عساني لا أملك مما يملكون ؟) إنه يضمّ في يده زهور الأضاليا الرائعة، سواء كانت وردية أم حمراء أم صفراء أم برتقالية .

وسألت دومينيك :

– قضيتما نهاراً جميلاً ، يا فتاتيّ الصغيرتين ؟

فقالت مارت في حميّا :

– رائع .

وردّدت لورانس :

– رائع .

كانت الشمس تميل إلى الغروب . ولم تكن حزينة لعودتها إلى البيت . وتردّدت . لقد انتظرت حتى الدقيقة الأخيرة ؛ وأن تطلب شيئاً من أمها ، هذا ما لا يزال يخيفها كما كان يخيفها وهي في الخامسة عشرة :

– لديّ ما أطلبه منك . . .

فجاء صوت دومينيك بارداً :

– ما هو ؟

– بصدد « سيرج » . إنه يودّ أن يترك الجامعة ، ويفضّل أن يعمل في الإذاعة أو التلفزيون .

– أيكون أبوك هو الذي كلّفك بذلك ؟

– التقيت عند أبي ببرنارد وجورجيت .

– كيف حالها ؟ ألا يزالان يمثّلان دور فيلمون وبوسي ؟

– أوه ! لقد لحتهما لمحاً .

– قولي لأبيك مرة أخيرة انني لست مكتب توظيف . أنا أجد مثل هذه المحاولات لاستغلالي أمراً مغيظاً . إنني لم أنتظر قط شيئاً من أحد .

قالت مارت :

– إنك لا تستطيعين أن تلومي بابا أنه يريد مساعدة حفيده .

– ألومه أنه لا يستطيع شيئاً بذاته .

ورفعت دومينيك يدها تدفع بها الاعتراضات الممكنة :

– كنت أفهم لو أنه كان متصوفاً أو دخل « لاتراب[1] » (وفكرت لورانس : هذا ليس صحيحاً) ولكنه اختار الاعتدال والكفاف .

إنها لا تغفر له أن يكون قد أصبح سكرتيراً محرّراً في مجلس النواب ؛ لا

---

١ – دير معروف في « سوليني » بفرنسا يراعي فيه رجال الدين قانون تقشف شديد القسوة (ه. م) .

المحامي الشهير الذي ظنّت أنها تزوجته .

قالت لورانس :

– لقد تأخر الوقت . أنا صاعدة لأعيد تجمّلي .

كان من المستحيل أن تسمح بمهاجمة أبيها ، ولكن الدفاع عنه كان أسوأ . كانت تحسّ دائماً ، إذ تفكـّر فيه ، بهذه الغصّة في القلب ، وهذا النوع من تبكيت الضمير . وبلا سبب : لم آخذ قط جانب الماما .

قالت دومينيك :

– أنا أيضاً صاعدة لأغيّر ثيابي .

وقالت مارت :

– إنني سأهتمّ بالأولاد .

كان ذلك مريحاً: فمنذ أن دخلت الرهبنة وهي تستولي على جميع السخرات. وهي تستمدّ منها مباهج رفيعة جداً حتى إن المرء يستطيع أن يَدَعها لها من غير ما وسواس .

وفيما كانت لورانس تعيد تصفيف شعرها في غرفة أمّها – ما أجمل هذا الطابع الريفيّ الإسباني ! – بذلت مجهوداً أخيراً :

– ألا تستطيعين حقاً أن تقدّمي خدمة لـ « سيرج » ؟

– لا .

واقتربت دومينيك من المرآة :

– أيّة هيئة لي ! إن المرأة التي في سنّي والتي تشتغل طوال النهار وتخرج كل مساء ، هي امرأة هالكة . سأكون بحاجة الى النوم .

وتفحّصت لورانس أمّها عبر المرآة . إنها الصورة الممتازة المثلى لامرأة تشيخ على نحو جيّد . امرأة تشيخ . وهذه الصورة ، كانت دومينيك ترفضها . ويسقط في يدها ، للمرة الأولى . لقد قبلت المرض ، والضربات القاسية. وفجأة يبدو الذعر في عينيها :

– إنني لا أستطيع أن أصدّق بأني سأبلغ يوماً السبعين .

فقالت لورانس :

– ليس ثمة امرأة واحدة تصمد مثل صمودك .

– بالنسبة للجسم ، لا بأس، فأنا لا أحسد أحداً . ولكن انظري هذا ... وأومأت إلى عينيها ، وعنقها . طبعاً ، ليست هي بعدُ في الأربعين .

وقالت لورانس :

– بالطبع ، لستِ بعد في العشرين . ولكن كثيرين من الرجال يفضّلون النساء اللواتي « عشن » . والدليل ، جيلبير ...

– جيلبير ... انما أقتل نفسي من أجل الخروج ، لكي أحتفظ به . ولكنّ هذا يوشك أن ينقلب عليّ .

– أيّ كلامٍ هذا !

وارتدت دومينيك تايورها من طراز « بالانسياجا » . ليس من « شانيـــل » على الاطلاق ، والنـــاس ينفقون ثروات ليبدوا وهم يقتنون ملابسهم من سوق « البقّ » . وتمتمت :

– يا لقذارة مـــاري – كلير ! إنها ترفض الطلاق بعنـــاد : لا لشيء إلا لتبعصني .

وماري – كلير تقول بكل تأكيد : يا لقذارة دومينيك ! كان جيلبير ، في عهد لوسيل دو سان – شامون ، ما يزال يسكن مع زوجته ، ولم تكن القضية حق لتطرح ، إذ كان للوسيل زوج وأولاد . وكانت دومينيك قد أجبرتـه على أن ينفصل عن ماري – كلير ، ولئن كان قد رضخ فلأنّ ذلك كان يناسبه بكل تأكيد ، ولكن لورانس مع ذلك كانت قد وجدت أُمها همجية بما فيه الكفاية .

– لاحظي أن الحياة المشتركة مع جيلبير ستحتمل كثيراً من المفاجآت . إنه يحب حرّيته .

– وأنت تحبين حرّيتك .

– نعم .

واستدارت دومينيك أمام المرآة على وجوهٍ ثلاثة وابتسمت . والحقيقة إنها

كانت مفتونة بان تذهب لتناول العشاء في منزل آل فردوليه ؛ إن الوزراء يهمّها أمرهم . وقالت لورانس في نفسها كم أنا سيئة النيّة . إنها أمّها ، وهي تكنّ لها الشغف . ولكنها كذلك أجنبيّة . فمن الذي يختبيء خاف المرايا التي تدور ؟ ربما لم يكن ثمة أحد على الإطلاق .

– كل شيء عندك على ما يرام ؟

– على ما يرام تماماً . إنني أطير من نجاح إلى نجاح .

– والصغيرتان ؟

– لقد رأيتهما . انهما تكبران .

إن دومينيك تطرح الأسئلة ، على سبيل المبدأ، ولكنها كانت تجد من الفضول غير المستحبّ أن تعطيها لورانس أجوبة مقلقة ، أو بكل بساطة مفصّلة .

وفي الحديقة ، كان جان – شارل منحنياً فوق أريكة جيزيل : غزلٌ دقيق يغريهما كليهما (كما يغري دوفرين ، على ما أظنّ) وكلٌ منهما يعطي الآخر الانطباع بأنّ بوسعهما أن يخوضا المغامرة التي لم يكن أحدهما ليتمنّاها (ولنفرض انهما خاضا هذه المغامرة ؟ أعتقد ان ذلك سيكون لديّ سواء . إن بالامكان اذن أن يكون ثمة حبّ بلا غيرة ؟)

قال جيلبير :

– وإذن ، فأنا أعتمد على حضورك يوم الجمعة . إننا لا نتسلى حين لا تكونين معنا .

– حسبُك مبالغة !

– أؤكد لك ذلك .

وشدّ على يد لورانس باندفاع ، كما لو أنه كان بينهما تواطؤ خاصّ ؛ من أجل هذا كان الجميع يجدون له سحراً .

– الى الجمعة .

إن الناس يلحّون على رؤية لورانس ، وهم يأتون اليها في استعجال : وهي لا تفهم حقاً سبب ذلك .

قالت جيزيل :

— يوم رائع !

فقال جان — شارل :

— إن من يعيش هذه الحياة في باريس شديد الحاجة الى مثل هذه الراحة .

فقال جيلبير :

— هذا ما لا غنى عنه .

ووضعت لورانس الصغيرتين داخل السيارة المغلقة الأبواب ، وجلست بقرب جان — شارل الذي انطلق على الطريق خلف سيارة دوفرين .

وقال جان — شارل :

— إن ما يُدهش لدى جيلبير أن يبقى بسيطاً إلى هذا الحدّ . ولنتذكر مسؤولياته وسلطته . ليس لديه أدنى أثر من التظاهر بالأهمية .

— إن بوسعه أن يستغني عنها .

— أنت لا تحبينه ، هذا طبيعي ، ولكن لا تكوني ظالمة .

— بلى ، إنني أحبّه كثيراً (هل تحبّه أم لا ؟ إنها تحبّ جميع الناس) .

وقالت في نفسها صحيح إن جيلبير لا يتكلم كثيراً ولا يتحذلق ، ولكن ليس ثمة من يجهل أنه يدير إحدى أكبر شركتين الآلات الألكترونية في العالم ، كما لا يجهل دوره في إنشاء السوق المشتركة .

وقال جان — شارل :

— أتساءل عن أرقام دخله . انها عملياً غير محدودة .

— يُذعرني أن أملك هذا القدر من المال .

— إنه يستعمله بذكاء .

— صحيح .

غريبٌ هذا : إن جيلبير مسلّ جداً حين يروي أسفاره . فبعد مضيّ ساعة ، يخفق المرء في وضع إصبعه على ما قال .

وقال جان — شارل :

– نهاية اسبوع ناجحة حقاً !

– ناجحة حقاً .

ومن جديد تساءلت لورانس ، ماذا لا أملك مما يملكون ؟ اوه ! ينبغي ألا نقلق ؛ إن هناك أياماً كهذه ينهض فيها الإنسان ضجراً ولا يستمتع بشيء ؛ ولا بدّ لها من أن تتعوّد . ومع ذلك فهي تتساءل كل مرة : ما الذي أشكوه ؟ وتصبح فجأة لامبالية ، بعيدة ، كما لو انها ليست واحدة منهم . لقد شرحوا لها الانهيار العصبي الذي أصابها منذ خمسة أعوام ؛ وكثيرات من النساء الشابات يجتزن هذا اللون من الأزمات . وقد نصحتها دومينيك أن تخرج من بيتها ، وأن تعمل . وكان جان – شارل موافقاً حين رأى كم كنت أربح . والآن ليس لي من مبرّر للإخفاق . إن أمامي عملاً دائماً ، وأشخاصاً حولي ، وأنا مسرورة من حياتي . لا ، ليس ثمة أيّ خطر . إنما القضية قضية مزاج وحسب. وأنا متأكدة من أن هذا يحدث للآخرين أيضاً ، في غالب الأحيان ، فلا يعقّدون الأمر .

والتفتت الى البنتين :

– هل تسلّيتما جيداً ، يا عزيزتيّ ؟

فقالت لويز في اندفاع :

– اوه ! نعم .

وتسربت رائحة أوراق ميتة من النافذة المفتوحة ؛ وكانت النجوم تلمع في سماء طفولية، وأحست لورانس فجأة أنها في رضى وراحة .

وتجاوزتهم سيارة « الفيراري » ، فلوّحت دومينيك بيدها، ووشاحها يخفق في الهواء . إن لها حقاً لشخصية . وكان جيلبير يحمل أعوامه الستة والخسين على نحو رائع . زوجان حقيقيان . وبالاجمال ، كانت على حق في أن تطلب وضعاً واضحاً .

قال جان – شارل :

– إنهما متلائمان تماماً . وهما ، من حيث السنّ زوجان منسجمان .

زوجان . وتفحصت لورانس جان – شارل. إنها تحب أن تكون الى جانبه

وهو يقود السيارة . انه ينظر بتنبه الى الطريق . وهي ترى جانب وجهه، هذا الجانب الذي كانت تنفعل له كثيراً منذ عشرة أعوام،وهو ما يزال يؤثر فيها. على أن جـــان – شارل يختلف بعض الشيء اذا نظرت الى سحنته مواجهة . فهي تكفّ عن أن تراه على النحو نفسه . إن له وجهاً ذكياً نشطاً ولكنه ، كيف تصفه ، ثابت ، جامد ككل الوجوه . أما جانبياً ، فان الفم يبـدو في الظل أكثر تحيراً ، والعينان أكثر حلماً . هكذا بدا لها قبل أحد عشر عاماً؛ وهكذا يبدو لها في غيابه، وأحياناً ، على نحو خفي، حين يقود السيارة وهي الى جانبه. وكانا صامتين . وكان الصمت يشبه التواطؤ ؛ انه يعبر عن توافق أعمق من أن تشرحه الكلمات . ربما كان ذلك وهماً . ولكن بينما كانت الطريق تنفغر تحت العجلات ، وبينما كانت البنتان يهوّم عليهما النعاس ، وبينما كان جان – شارل ملتزماً الصمت ، كانت لورانس تريد أن تصدق ذلك.

وزال كل ضيق حين جلست لورانس بعد ذلك بقليل أمام طاولتها: إنهـا متعبة بعض الشيء فحسب ، دائخة بفعل الريح القوية ، مستعدة لهـذه الألوان من التيهان الذي كانت دومينيك تحطمه : « كفـّي عن الحلم : إفعلي شيئاً مـا » وكانت هي تمتنع عنه تلقائياً الآن . وقالت في نفسها وهي تفك قلم الحبر : «يجب أن أعثر على هذه الفكرة . أية صورة إعلانية جميلة ، َتعِدُ – لصالح بائع أثاث أو بائع قمصان أو بائع زهور – بالأمن والسعادة . ان الزوجـين السائرين على الرصيف ، محاذيين السور تحت حفيف الأشجار العذب ، يقفان ليتأملا داخـل البيت المثالي : فتحت المصباح ، يُرى الشاب الجميل الأنيق بصدرتـه الانفورة وهو يقرأ مجلة بهيئة اهتمام ؛ والمرأة الشابة ترى جالسة الى طاولتها ، وقـلم حبر في يدها ، والإنسجام قائم بـين الألوان السوداء والحمراء والصفراء المتناسبة (يا للصدفة السعيدة !) مع زهور الأضاليا الحمراء والصفراء . لقد كانت ، حـين قطفتها الساعة ،زهوراً حية . وأخذت لورانس تفكر بهذا الملك الذي كان يحيل

ذهباً كل ما كان يمسه حتى أصبحت ابنته الصغيرة لعبة رائعة من المعدن . ان كل ما تمسه هي يتحول الى صورة . « إنك بلوحات من خشب تمزجين أناقة المدن بكل شِعْر الغابات » . ولمحت عَبْر الأغصان والأوراق تدفق النهر الأسود ، ومرّ قارب يفتش الضفاف بنظره الأبيض . ولطّخ الضياء الزجاج ، فأثار بقسوة العاشقين المتنقين ، صورة من الماضي تُردّ لي . أنا التي هي صورة من مستقبلهما الرقيق ، مع أطفال يحلمون بأنهم تائهون في الغرف الداخلية . « يتسلل أطفال الى داخل شجرة جوفاء فيجدون أنفسهم في غرفة فاتنة ذات ألواح من خشب طبيعي » . فكرة يمكن أن تُتابع .

لقد كانت دائماً فكرة صورة ، وقد سهرت دومينيك على ذلك مسحورةً في طفولتها بصور شديدة الاختلاف عن حياتها ، مصرّة – بكل ذكائها وطاقتها الهائلة – على ردم هذه الحفرة . (إنك لا تعرفين ما معنى أن يكون لك حذاء ممزق وأن تشعري عبر جوربك انك تمشين على بصقة . ولا تعرفين معنى أن تحدجك رفيقات لك ذوات شعر نظيف دائماً وهن يتدافعن بالمرفق . لا . لن تخرجي وهذه اللطخة على تنورتك . فاذهبي فأبدليها .) كانت فتاة صغيرة لا شائبة فيها . مراهقة مكتملة ، صبية ممتازة . كم كنتِ نظيفة نضرة رائعة ... كما يقول جان – شارل .

كان كل شيء نظيفاً ، نضراً ، رائعاً : ماء الحوض الأزرق ، وحفيف أكرة التنس الباذخ ، والعقارب الحجرية البيضاء ، والسحب المتدحرجة في السماء الملساء ، ورائحة الصنوبر . كانت لورانس ، إذ تفتح مصاريعها كل صباح ، تتأمل صورة فوتوغرافية رائعة على ورق مصقول تمثل صبية وفتيات بثياب فاتحة ، في فناء الفندق ، وقد سمّرت الشمس بشرتهم ، وصقلتها كأنها الحصى الجميل . وصورة لورانس وجان – شارل في ثياب فاتحة وبشرة مسمّرة مصقولة . وفجأة ، ذات مساء ، في طريق العودة من نزهة ، داخل السيارة المتوقفة ، فمه على فمي ، وذلك الأتون ، وهذا الدوار . واذ ذاك ، خلال أيام وأسابيع ، كففت عن أن أكون صورة ، وأصبحت لحماً ودماً ، وشهوة ولذة . واستردت كذلك تلك

العذوبة الأكثر خفاء التي كنت قد عرفتها من قبل ، وأنا جالسة عند قدمي أبي أو ممسكة يده بيدي ... ومن جديد ، منذ ثمانية عشر شهراً ، مع لوسيان ، النار في عروقي ، وفي عظامي ذلك الانحلال اللذيذ . وعضّت على شفتها . لو كان جان – شارل يدري ! والواقع ، أن لا شيء قد تغيّر بين لورانس وبينه . أما لوسيان – فهو على الهامش . والحقّ إنه لم يَعُد يفعل فيها كالسابق .

– هل أتت هذه الفكرة ؟

– سوف تأتي .

نظرة من الزوج فطنة ، وبسمة من المرأة الشابة رقيقة . لقد قالوا لها دائماً انها تملك بسمة جميلة : وهي تحسّها على شفتيها . سوف تأتي الفكرة . إن الأمر صعب دائماً في البدء ، فكثيرة هي الكليشيهات المستعملة ، وكثيرة هي الاشراك التي ينبغي تجنبها ، ولكنها تعرف مهنتها . إنني لا أبيع لوحات خشبية : بل أبيع الأمان والنجاح بالإضافة الى لمسة شعرية. حين اقترحت عليها دومينيك أن تصنع صوراً من ورق ، نجحت نجاحاً كاملا وسريعاً حتى ظنّ الناس انها ذات موهبة . أمان . ان الخشب ليس أكثر قابلية للاشتعال من الحجر أو القرميد : ينبغي أن يُقال ذلك من غير تذكير بفكرة الحريق . وهنا يحتاج الأمر الى البراعة .

ونهضت فجأة : ترى ، هل تبكي كاترين هذا المساء ايضاً ؟

كانت لويز نائمة . وكانت كاترين تنظر الى السقف . وانحنت لورانس :

– ألست نائمة يا حبيبتي ؟ بمَ تفكرين ؟

– بلا شيء .

وقبلتها لورانس ، متعجبة . إن هذه الأسرار ليست من طبع كاترين . فهي منفتحة ، بل وثرثارة .

– ان الإنسان يفكر دائماً بشيء ما . حاولي أن تقولي لي .

وتتردد كاترين لحظة . فتدفعها بسمة أمها إلى القول :

– ماما ، لماذا نحن موجودون ؟

هذا هو نوع الأسئلة التي يوجهها اليك الأولاد وأنت لا تفكرين إلا ببيع لوحات خشبية . لا بد من الاجابة بسرعة :

– يا جوهرتي . سنكون أنا وبابا حزينين جداً إن لم تكوني موجودة .

– واذا لم تكونا أنتما موجودين ؟

أي قلق في عيني هذه الفتاة الصغيرة التي ما زلت أعاملها كطفلة ! لماذا تطرح على نفسها هذا السؤال ؟ هوذا اذن ما يجعلها تبكي .

– ألم تكوني مسرورة ، بعد ظهر هذا اليوم ، أن تكوني أنت وأنا والجميع موجودين ؟

– بلى .

ولم يبدُ على كاترين انها مقتنعة تماماً . وأشرقت في بال لورانس فكرة ، فقالت باندفاع :

– إنما نحن نوجد ليُسعد بعضنا البعض الآخر .

وكانت معتزة بجوابها اعتزازاً كافياً .

أما كاترين ، فاستمرت تفكر ، وملامح وجهها منغلقة ، أو هي بالأحرى استمرت تبحث عن كلماتها :

– ولكن ، الأشخاص الذين ليسوا سعداء ، لماذا هم موجودون ؟

ها نحن ذا ، لقد بلغنا النقطة الهامة .

– هل رأيت أشخاصاً أشقياء ؟ أين رأيتهم ، يا حبيبتي ؟

فصمتت كاترين ، والخوف بادٍ عليها . أين ؟ إن «غويا» مرحة وهي تتكلم الفرنسية بمشقة . والحي غني : فليس فيه متسكعون ولا شحاذون ؛ أتكون إذن هي الكتب ؟ أيكونون هم الرفاق ؟ هل لك رفيقات صغيرات هن شقيات؟

– اوه ! لا !

وبدا الصوت صادقاً . وتقلبت لويز في سريرها ، وقد آن لكاترين أن تنام ؛ وليس يبدو عليها أنها راغبة في المزيد من الكلام ، وإن اقناعها بذلك ليحتاج الى وقت .

– اسمي . سنتحدث في هذا غداً . ولكن ان كنت تعرفين أشخاصاً تعساء ، فسنحاول أن نعمل من أجلهم شيئاً ، إن بالإمكان معالجة المرضى ومساعدة الفقراء بالمال ، وأشياء كثيرة أخرى ...

– صحيح ؟ من أجل الجميع ؟

– أظنك تعتقدين أنني سأبكي طوال النهار إن كان هناك أشخاص لا علاج لشقائهم . سترين لي كل شيء . وأعدك باننا سنجد العلاجات .

وكرّرت وهي تلامس شعر كاترين :

– أعِدُك . نامي الآن يا حبيبتي الصغيرة .

فانسابت كاترين تحت الغطاء ، وأغمضت عينيها . لقد هدّأها صوت امها وقبلاتها . ولكن غداً ؟ إن لورانس تتحفظ عادة من الوعود غير الحكيمة . وهي لم تعط قط وعداً كهذا غير مأمون العاقبة .

ورفع جان – شارل أنفه ، فقالت لورانس :

– لقد روت لي كاترين حلماً .

غداً ستقول له الحقيقة . لا هذا المساء . لماذا ؟ إنه مهتم بالصغيرتين. وجلست لورانس وتظاهرت بانها تستغرق في بحثها . ليس هذا المساء . انه سيقدّم لها على الفور خمسة شروح أو ستة . وهي تريد أن تفهم قبل أن يُتاح له أن يجيب . ما الذي تشكوه الصغيرة ؟ لقد كنت أنا أيضاً ، في سنها ، أبكي : وكم قد بكيت ؛ وربما كان بسبب ذلك أني كففت عن البكاء . كانت الآنسة هوشيه تقول : « إنه يتوقف علينا نحن أن لا يذهب هؤلاء الموتى بلا جدوى » . وكنت اصدّقها . كانت تقول أشياء كثيرة : أن يكون المرء إنساناً بين البشر ! . وقد ماتت بالسرطان . الإعدامات الجماعية ، هيروشيما : وكان ثمة أسباب في عام ١٩٤٥ تجعل طفلة في الحادية عشرة مذعورة . بل لقد فكرت لورانس أن من المستحيل أن تقع مثل تلك الفظائع من أجل لا شيء ، وكانت قد حاولت أن تؤمن بالله ، وبحياة أخرى تعوّض عن كل شيء . وكانت دومينيك قد وقفت موقفاً رائعاً : فسمحت لها أن تتحدث مع كاهن ، بل هي قد اختارته ذكياً : أجل . في عام

٤٥ كان ذلك طبيعياً. أما اليوم فاذا بكت ابنتي، فإني أنا المسؤولة. وستخطئني دومينيك وجان – شارل أنا بالذات. وجدير بها أن تنصحني بزيارة عالم نفسي. إن كاترين تقرأ بصورة هائلة، أكثر مما ينبغي، ولا أدري تماماً ماذا تقرأ: ولست أملك الوقت لذلك. ومهما يكن من أمر، فإن الكلمات لن تحمل لها المعنى نفسه الذي تعنيه لي.

قال جان – شارل وهو يربت على مجلته باصبع متأمل:

– هل تتصورين ! إن في كوننا نفسه مئات الكواكب المسكونة ! إننا نشبه دجاجاً محجوراً عليه في خن يظنه العالم كله.

– اوه ! حتى على الأرض. نحن محجوزون في دائرة صغيرة، ضيقة غاية الضيق.

– ليس اليوم. فنحن مع الصحافة والأسفار والتلفزيون وعمّا قليل الموندوفيزيون نعيش كوكبياً. والخطأ هو أن نعتبر الكوكب الكون كله. وعلى أي حال، فسيكون قد تمّ عام ٨٥ استكشاف النظام الشمسي كله. ألا يدعوك ذلك الى التفكير؟

– بصراحة، لا.

– إن خيالك قصير.

وفكرت لورانس: حتى الأشخاص الذين يسكنون في الطابق الأعلى، لا أعرفهم. أما الذين في الشقة المقابلة، فهي تعرف عنهم الكثير، عبر الحاجز: مياه الحمّام تسيل، الأبواب تصطفق، الراديو يصبّ أغاني واعلانات عن «البنانيا»، الزوج يشتم زوجته التي تشتم بعد ذهابه ابنهما. ولكن ما الذي يجري في الثلاثمئة والأربعين شقة التي يضمها البناء؟ وفي بيوت باريس الأخرى؟ إنها تعرف لوسيان في مؤسسة «بوبلانف»، وتعرف مونا بعض الشيء. وتعرف بعض الوجوه وبعض الأسماء. اسرة، أصدقاء: نظام صغير مغلق؛ وجميع تلك الأنظمة الأخرى التي لا يُنفذ اليها. إن العالم قائم في كل مكان آخر، وليس ثمة سبيل الى دخوله. ومع ذلك، فهو قد تسلّل الى حياة كاترين، وهو يذعرها ويجب عليّ

أن أحميها منه . كيف لي أن أجعلهـا تقرّ بوجود أشخاص تعساء وكيف لي أن أجعلها تصدّق بانهم سيكفـّون عن أن يكونوا كذلك ؟

وسألها جان – شارل :

– ألا تشعرين بالنعاس ؟

لن تأتي أية فكرة هذا المساء ، فلا جدوى من المعاندة . وابتسمت ابتسامة أرادتها منسجمة مع ابتسامة زوجها :

– بلى . إنني ناعسة .

طقوس ليلية ، خرير الماء الفرح في الحمـام . وعلى السرير المنامة التي تنبعث منها رائحة اللاونـــد والتبغ الأشقر ، وجان – شارل يدّخن سيكارة في حين أن الدوش يزيل عن لورانس هموم النهار . محو سريع للماكياج وترتدي القميص الرقيق ، إنها مستعدة . (اختراع عظيم هو هـــذا القرص الذي نبتلعه صباحاً ونحن ننظف أسناننا : لم يكن ممتعاً أن تضطر الى تلك التدابير الاحتياطيـــة الكثيرة المزعجة .) وفي رطوبة الفراش الأبيض ينزلق القميص من جديد عـن بشرتها ، ويطير من فوق رأسها ، فتستسلم لحنان جسم عارٍ . جذل المداعبات والملامسات . لذةٌ عنيفة فرحة . بعد عشر سنوات من الزواج ، تفاهم جسدي ممتاز . صحيح ، ولكنه لا يغير لون الحياة . إن الحب أيضاً أملس ، صحّيّ ، روتيني .

قالت لورانس :

– نعم ، إنها لطيفة ، رسومك هذه .

والحق أن « مونا » موهوبة ؛ وقد اخترعت شخصية صغيرة ممتعة غالباً مـا استعملتها لورانس في حملاتها ، بل أكثر مما ينبغي ، على مـا يقول لوسيان الذي هو أفضل مؤلف موضوعات (موتيفات) في الدار .

قالت مونا :

– ولكن ؟

وكانت تشبه مخلوقتها : خبيثة ، قاسية وجميلة .

– تعرفين ما يقول لوسيان . يجب ألاّ تبالغي في روح الفكاهة . وفي هذه الحالة – فالخشب يكلف غالياً ، وهذا شيء جدّي – فانّ الصورة الملوّنة تصيب نجاحاً أكبر .

وقد احتفظت لورانس بصورتين ، مؤلفتين وفقاً لإرشاداتها : صورة غابة سامقة الأشجار بأعشابها وممرّها وإشعاع جذوعها القديمة ، وصورة امرأة شابّة في ثوب رقيق ، تبتسم وسط غرفة مزيّنة بلوحات خشبية .

وقالت مونا :

– إنني أجدها تافهة .

– تافهة ، ولكنها تجذب النظر .

قالت مونا :

– سينتهي بي الأمر إلى أن أفرغ نفسي . لقد أصبح الرسم لا أهمية له في هذا المكان . إنكم تفضّلون الصورة الفوتوغرافية دائماً .

وجمعت صوَرَها وسألت في فضول :

– ما الذي يحدث مع لوسيان ؟ ألا ترينه بعد ؟

– بلى .

– إنك لا تطلبين مني بعدُ حججاً .

– بل سأطلبها منك .

وخرجت مونا من المكتب ، وعادت لورانس تعمل في دقّة بالنصّ الذي سيرافق الصورة . ولكنها لم تكن متحمّسة . وقالت لنفسها في سخرية : « هوذا الوضع الممزّق للمرأة التي تعمل » . (وكانت تشعر بأنها أكثر تمزّقاً حين لم تكن تعمل) انها في البيت تبحث عن شعارات ؛ وهي في المكتب تفكر بكاترين . ومنذ ثلاثة أيام ، لا تفكر بعدُ بشيء آخر .

كانت المحادثة طويلة ومشوّشة . وكانت لورانس تتساءل ايّ كتاب أو أي

لقاء أثّر على كاترين ؛ إن مـــا كانت كاترين تريد أن تعرفـه هو كيف كان بالإمكان إلغاء الشقاء . وقـــد تحدثت لورانس عن المساعِدات الاجتماعيات اللواتي يساعدن الشيوخ والسكان المحليّين ، وعـــن الممرضات والطبيبات اللواتي يشفين المرضى .

– هل أستطيع أن أكون طبيبة ؟

– بكل تأكيد ، اذا ظللت تدرسين جيداً .

فأشرق وجه كاترين ؛ لقد فكروا في مستقبلها : إنهـــا ستعنى بالأطفال ، وكذلك بأمهاتهم ، ولكن خصوصاً بالأطفال .

– وأنت ، ماذا تعملين من أجل التعساء ؟

يا لهذه النظرة التي لا ترحم في عيون الأطفال الذين لا يمثّلون !

– إنني أساعد البابا في كسب حياتنا. فالفضل يرجع لي أنا في انك ستتابعين دروسك وتشفين المرضى .

– وبابا ؟

– انه يبني بيوتاً لمن لا يملكون البيوت . هذه أيضاً طريقة في تقديم الخدمة لهم .

(يا للكذب الفظيع ! ولكن إلى أيـــة حقيقة يمكن الركون ؟) وظلت كاترين مبلبلة . لماذا لا يُعطى الطعام لجميع الناس ؟ وطرحت لورانس أسئلة من جديد ، وانتهت الصغيرة الى التحدث عن الإعلان . الأنّ ذلك كان أهمّ شيء ، أم لرغبةٍ عندها في إخفاء شيء آخر ؟

ربّما كان الإعلان ، في نهاية المطاف ، هو التفسير الحقيقي . قوة الصورة على الإيحاء . « إن ثلثي الناس جائعون » ويا لهذا الوجه الطفوليّ الجميـــل ، بعينيه المتسعتين وفمه المنغلق على سرّ رهيب ! إن هذا بالنسبة لي علامة : علامـة أنّ الصراع مستمر ضد الجوع . لقد رأت كاترين طفلاً في سنها ، كان جائعاً . وإني لأتذكر : كم كان الأشخاص الكبار يبدون لي عديمي الإحساس ! إنّ هناك أشياء كثيرة لا نلاحظها ؛ بلى ، نلاحظها ولكننا نهملها أو نتجاهلها لأننا نعلم أن لا

فائدة من التوقف عندها . مـا جدوى تبكيت الضمير ؟ – وهنا يتفق البـابا وجان – شارل ، هذه المرة على الأقل – . قضية التعذيبات تلك ، التي حدثت منذ ثلاثة أعوام ، فكرت بها طويلاً حتى مرضت : فما كان جدوى ذلك ؟ إننا مجبرون على أن نعتاد فظائع العالم، فعددها يتجاوز الحدّ المعقول : عَلف الأوز، قطع الأعضاء ، السحل ، ألوان القمع ؛ إننا نرى هذا في السينما ، في التلفزيون ، فنمضي غير مبالين . صحيح إن هـذا سيزول ، بالضرورة ، فهي قضية وقت . ولكن الأطفال يعيشون في الحاضر ، وليس لديهم من دفاع . وقالت لورانس في نفسها : « لا بدّ من التفكير بالأولاد . وينبغي ألا تعرض مثل هـذه الصور على الجدران . » تفكير كريه . كريه : كلمة من سنواتي الخمس عشرة . ولكن ماذا تعني ؟ إنّ لي ردّ الفعل الطبيعي لأم تريد أن تحمي ابنتها .

وانتهت لورانس الى القول : « هذا المساء ، سيشرح لـك بابا كل شيء » . عشر سنوات ونصف : اللحظة التي تستطيع فيها ابنة أن تنفصل قليلاً عن أمّها وأن تتجه نحو أبيها . وفكرت بانه سيجد خيراً مما تجد حججاً مُرضية .

وفي البـدء ، أزعجتها لهجة جان – شارلى . لم تكن ساخرة تمامـاً ، ولا مجاملة بل أبوية .

وبعد ذلك ألقى خطاباً قصيراً واضحاً جداً ، مقنعاً جداً . وحتى ذلـك الحين كانت نقط الأرض المختلفة متباعدة فيما بينها ، ولم يكن الناس يحسنون تدبر أمورهم ، وكانوا أنانيين. وقد كان ذلك الإعلان يعني اننا نريد أن تتغير الأشياء. وبالإمكان الآن إنتاج قـدر من الطعام أكبر جداً من ذي قبل ، ونقله بسرعـة وسهولة من البلاد الغنية إلى البلاد الفقيرة : وهناك مؤسّسات تهتمّ بذلك .

وقد أصبح جان – شارل غنائياً ، شأنه كلما ذكر المستقبل : لقـد غطى الصحارى القمحُ والخضار والأثمار، وأصبحت الأرض كلها هي الأرض الموعودة؛ كان جميع الأطفال وقد أتخموا بالحليب والأرز والطماطم والبرتقال .

وكانت كاترين تستمع مسحورة : كانت ترى الحدائق والحقول في عيد .

– إذن ، لن يبقى ثمة شخص حزين ، بعد عشر سنوات ؟

– لا نستطيع أن نقول ذلك. ولكن جميع الناس سيأكلون ؛ وجميع الناس سيكونون أكثر سعادة .

وإذ ذاك قالت بلهجة مقتنعة :

– كنت أتمنى لو أني وُلدت بعد عشرة أعوام .

فضحك جان – شارل ، معتزاً بنضج ابنته البكر ، ولم يأخذ دموعها على مأخذ الجدّ ، وكان راضياً بنجاحها المدرسي . إن الأطفال غالباً ما يجدون أنفسهم ضائعي الاتجاه حين يدخلون الصف السادس ؛ أما هي فان اللاتينية تسليها ؛ وقد أحرزت علامات جيدة في جميع الفروع . وقد قال لي جان – شارل : « سنجعل منها شخصاً معتبراً » . أجل ، ولكن من ؟ إنها الآن طفلة حزينة جداً ، ولا أدري كيف أواسيها .

ودقّ جرس التلفون الداخلي .

– لورانس ، هل أنت وحدك ؟

– نعم .

– أنا آتٍ لألقي عليك التحية .

وفكرت لورانس : « سيُنحي عليّ باللوم » ؛ صحيح انها أهملته منذ العودة من عطلة الصيف ؛ كان ينبغي إعادة فتح الدار ، وإطلاع غويا على الوضع ، ولكن لويز أصيبت بالنزلة الصدرية . وكانت قد مرّت ثمانية عشر شهراً منذ تلك الحفلة في « بوبلانف » التي جرت التقاليد على ألا يُقبَل فيها الأزواج ولا الزوجات . وكانا قد رقصا معاً مدة طويلة – إنه يحسن الرقص – وكانا قد تبادلا القبلات ، وتكرّرت المعجزة : هذه النار في العروق ، وذلك الدوار . والتقيا ثانية في منزله ، ولم تعُدْ الى بيتها إلا عند الفجر ، متظاهرة بالسكر – بالرغم من أنها لم تشرب شيئاً ، وهي لا تشرب قط – بلا ندم ، ما دام جان – شارل لن يعرف شيئاً ولن يكون للقصة من تتمة . وبعد ذلك ، كم من اضطراب ! كان يلاحقني ، وكان يبكي ، فكنت أستسلم ، وكان يقطع صلته ، فكنت أتألم ، وكنت أبحث في كل مكان عن سيارة « الجولياتا » الحمراء ، وكنت أتشبّث

بالتلفون ، فكان يعود ، وكان يبتهل : اتركي زوجـك ، لا على الإطلاق ولكني أحبك ، فكان يشتمني ، ويذهب ثانية ، فكنت أنتظر ، وأؤمل ، وأيأس ، وكنا نلتقي من جديد، فيا لها من سعادة ، كم تألمت بدونك ، وأنا تألمت بدونك: صارحي زوجك بكل شيء ، على الاطلاق... واستمرت جميع تلك الروحات والعودات ، وكنا نسقط دائماً عند النقطة نفسها ...

قالت لورانس :

– كنت بحاجة الى رأيك حقاً . أيّ المشروعين تفضّل ؟

فانحنى لوسيان من فوق كتفها ، وتفحّص الصورتين ؛ وتأثرت بهيئته المفكرة المهتمّة .

– من الصعب الاختيار . فكل منها متأثرة بموضوعات مختلفة .

– أيّها أكثر جدوى وفعالية ؟

– إنني لا أعرف أيّ إحصاء مقنع . فاعتمدي على حسّك .

ووضع يده على كتف لورانس :

– متى نتناول العشاء معاً ؟

– سيذهب جان – شارل الى إقليم « الروسيلون » مع فيرني بعد ثمانيـــة أيام .

– ثمانية أيام !

– عفواً ! إن لديّ هموماً في البيت : بسبب ابنتي .

– لست أفهم العلاقة .

– أما أنا ، فأفهمها .

مناقشة معهودة أكثر مما ينبغي: لا تريدين بعدُ أن تريني ، بلى أريد ، إفهم، انني أفهم كل شيء ... (ترى هل ثمة في هـــذه اللحظة ، في نقطة أخرى من الكون ، لوسيانٌ آخر ولورانسٌ أخرى يقولان الكلمات نفسها ؟ بالطبع ،على كل حال في مكاتب ، وغرف ، ومقاهٍ ، في باريس ، لندن ، روما ، نيويورك ، طوكيو ، بل ربما في موسكو) .

– لنتناول معاً قدحاً في المساء ، عند مغادرة الدار . هل يناسبك هذا ؟

فنظر اليها في لوم :

– ليس لي الخيار .

وذهب غاضباً : مع الأسف . لقد بذل جهداً جاداً ليتقبّل الوضع . انه يعلم انها لن تطلّق أبداً ، فهو لا يهدّد بعدُ بقطع العلاقة . إنه ينطوي لكل شيء . أو يكاد . وهي متعلقة به : فهو يُريحها من جان – شارل ؛ إنه مختلف عنه أشدّ الاختلاف : كالماء والنار . إنه يحب الروايات التي تحكي قصصاً ، ويحب ذكريات الطفولة ، وطرح الأسئلة ، والتشرد . ثم إنها تحس نفسها ذات قيمة ثمينة ، تحت نظره . ذات قيمة ثمينة : هي أيضاً تدعُ نفسها تُملَك. إن المرء يظن بأنه متعلق برجل : والحق انه متعلق بفكرة عن ذاته ، بوهم من الحرية ، أو بشيء غير متوقع ، بألوان من السراب (هل هذا صحيح ، أم انّ المهنة تشوهني ؟) وعملت على إنجاز نصّها . وأخيراً ، اختارت المرأة الشابةَ المرتدية الغلالة الرقيقة . وأغلقت المكتب ، واستقلت سيارتها. وفيما كانت تلبس قفازيها وتغير حذاءها ، صعد في داخلها جذَلٌ مَرح . لقد بلغت ، بالفكر ، شارع « الاونيفرسيته » ، ودخلت الشقة الملآى بالكتب وبرائحة تبغ قوية . ومن سوء الحظ انها لا تبقى أبداً مدة طويلة . إنها إنما تحبّ أباها أكثر من أي شخص آخر – في العالم – وهي ترى دومينيك أكثر من ذي قبل . كذلك كنت في حياتي كلها : إنّ أبي هو مَن كنت أحب ، وأمي هي التي صنعتني .

« يا لك من ثقيل ! » وتردّدت نصف ثانية أكثر مما ينبغي ، لقد سرق الرجل الضخم مكانها . وكان عليها من جديد أن تدور في تلك الأزقة الضيقة ذات الاتجاه الواحد حيث تتلامس القطع الواقية من الجانبين . أما المرائب الأرضية ، والمراكز المدنية ذات المستويات الأربعة ، والمدينة التكنيكية تحت مجرى السين : فبعد عشر سنوات . أنا أيضاً ، كنت أتمنى لو انني أعيش بعد عشر سنوات . وأخيراً ، هذا مكانٌ خال ! مئة متر على القدمين، وتغيّر عالمها: غرفة بوّاب على الطراز القديم ، مع ستار مكسّر وروائح مطبخ ، وفناء

صامت ، وسلم من حجر يُرقى على القدمين و يُصدي تحت الخطوات .

– يستحيل على المرء أكثر فأكثر أن يوقف سيارته .

– إنني أصدّق هذا الكلام .

حق التفاهات، مع أبيها ، ليست بالتفاهات : بسبب هذا الشعاع المتواطيء في عينيه . انهما كليهما يملكان مذاق التواطؤ : تلك اللحظات التي يحسّ فيها كلٌّ منهما بانه قريب من الآخر قربا يوهم بان أحدهما لا يعيش إلا من أجل الآخر . ويلمع الشعاع ، خبيثاً ، حين سألها ، بعد أن أجلسها وقدّم لها عصير برتقال :

– كيف حال أمّك ؟

– على أحسن حال .

– من تراها تقلّد في هذه الأيام ؟

إنه منشارٌ بينهما ، هذا السؤال الذي كان يطرحه فرويد بصدد المصابة بالهستيريا . والواقع أن دومينيك تقلّد دائماً أحداً ما .

– أظن انها في هذه اللحظة جاكلين فيردوليه . إن لها تسريحة الشعر نفسها ، وقد تخلّت عن كاردين لتتبنى بالانسياجا .

– إنها تعاشر فيردوليه؟ تلك الحثالة...صحيح انها لم تتردّد قط في مصافحة أية يد ... هل حدّثتها عن سيرج ؟

– انها لا تريد أن تفعل شيئاً من أجله .

– كنت أتوقع ذلك .

– لا يبدو عليها انها تحبّ عمّي وعمتي . وهي تدعوهما فيلمون وبوسي . .

– ليس هذا صحيحاً الى هذا الحدّ . فأنا اعتقد ان اختي قد فقدت كثيراً من أوهامها عن برنار . إنها لا تحبّه بعدُ حباً .

– وهو ؟

– إنه لم يقدّرها قط حق قدرها .

ان يحبّها حباً ؛ أن يقدّرها حق قدرها : إن لهذه الكلمات معناها بالنسبة له . لقد أحبّ دومينيك حباً . ومن أحبّ ايضاً ؟ أن تكون محبوبة منه : هل

ثمة امرأة عرفت أن تكون جديرة بذلك ؟ لا ، بلا شك ، وإلا لما أدركت زاوية فمه هذه الثنيةُ المرّة .

وعاد يقول :

– ان الناس ما يزالون يدهشونني . ان برنار ضد العهد وهو يجد من الطبيعي أن يريد ابنُه دخول الاذاعة والتلفزيون اللذين هما اقطاع حكومي . لا بدّ اني مثاليّ قديم لا يتوب : لقد حاولت دائماً أن أوفق بين حياتي ومبادئي .

فقالت لورانس في أسف :

– أما أنا ، فليست لي مبادىء !

– انك لا تتظاهرين بذلك ، ولكنك مستقيمة ، وهذا خيرٌ من العكس .

هذا ما قاله أبوها في حرارة .

فضحكت ، وشربت جرعة من عصير البرتقال ، فأحسّت بالارتياح .

ما الذي لا تمنحه لكي تحظى بثناء منه ؟ انه غير جدير بمساومة ، ولا بمناورة ، وغير مبال بالمال : انه لفريد .

وفتش في اسطواناته . ليس لديه آلة انتاج الصوت ، ولكنّ عنده عدداً كبيراً من الاسطوانات المختارة بحب .

– سأسمعك شيئاً رائعاً : تسجيلاً لـ « تتويج بوبيه » .

وحاولت لورانس أن تركز انتباهها . امرأة تودّع وطنها وأصدقاءها . هذا جميل . ونظرت الى أبيها : ليتها تستطيع ان تخشع مثله ! إن ما حسبت انها تجده مرة أخرى لدى جان – شارل ، ولدى لوسيان ، انما يملكه هو وحده : فعلى وجهه انعكاسٌ من اللامحدود . أن يكون المرء لنفسه حضوراً صديقاً ؛ أن يكون موقداً يشعّ حرارة . إنني أمنح نفسي بَذخَ أن أحسّ بالتبكيت ،وألوم نفسي أن أهمله ، ولكنني أنا التي احتاج اليه .

ونظرت اليه ، وتساءلت ايّ سرّ هو سرُّه ، وهل تراها ستكتشفه يوماً . إنها لا تصغي . فمنذ وقتٍ طويل كفّت الموسيقى عن محاورتها . إن المؤثر لدى مونتفردي ، والمأساوي لدى بتهوفن يشيران الى آلام لم تشعر بها قط : آلام

ملآى ومسيطرٌ عليها ، ملتهبة . لقد عرفت بعض التمزّقات الحامزة ، وبعض الحنق والغيظ ، وبعض الأسى والقلق والفراغ والضجر : لاسيما الضجر . إن الضجر لا يُغنّى . . .

وقالت بصوت حارّ :

– نعم ، إنه رائع .

(كانت الآنسة هوشيه تقول : « قولوا ما تفكرون به » . حتى مع الأب ، هذا مستحيل . إنما نقول ما ينتظره الناس منا) .

– كنت أعرف انك ستحبين ذلك . هل أضع البقية ؟

– ليس اليوم . أودّ أن أسألك نصيحة . بصدد كاترين .

وبدا عليه التنبّه فوراً ، والترحيب ، وهو غير عالمٍ بالجواب مسبّقاً . وحين انتهت من الكلام ، فكـّر :

– كل شيء على ما يرام ، بينك وبين جان – شارل ؟

سؤال مناسب . لعلني لم أكن لأبكي كما بكيت على الأطفال اليهود المقتولين لو لم تسُد تلك الألوان من الصمت الثقيل في البيت .

– كل شيء على ما يرام .

– إنك تجيبين بسرعة كليّة .

– حقاً ، كل شيء على ما يرام . انني لا أملك حيويته ؛ ولكن مـا عندي يوازن ذلك ، لصالح الطفلتين . إلا أن أكون شاردة أكثر مما ينبغي .

– بسبب عملك ؟

– لا . أحسّ بأني شاردة بصورة عامة . ولكني لا أحسب اني كذلك مـع الصغيرتين .

وصمت أبوها . فسألت :

– بمَ عساني أستطيع أن أجيب كاترين ؟

– ليس هناك ما يجاب به . فما أن يطرح السؤال ، حتى لا يكون هناك ما يجاب به .

– ولكنّ عليّ ان أجيب . لماذا نحن موجودون ؟ صحيح انّ هذا تجريد ، انه يمتّ الى الميتافيزيقا ؛ فهذا السؤال لا يقلقني كثيراً . ولكن المصيبة ان ذلك شيء ممزّق بالنسبة لطفلة .

– حتى عَبرَ الشقاء يمكن ايجاد الفرح . ولكني أعترف انــه ليس من السهل إقناع طفلة في العاشرة بهذا .

– وإذن ؟

– سأحاول أن أتحدث اليها وأن أفهم ما الذي يقلقها . وبعد ذلك، أعطيك رأيي .

ونهضت لورانس :

– يجب أن أذهب . لقد آن الأوان .

لعلّ أبي سيكون أكثر حكمة من جان – شارل ومني . وتابعت لورانس في نفسها : انه يحسن التحدث الى الأطفال ؛ وهو يعرف اللهجة التي يتكلم بها مــع كل شخص. ثم هو يخترع هدايا لطيفة. لقد أخرج من جيبه، إذ وصل الى البيت، قالباً من الورق المقوّى ، محاطاً بتخطيطات لامعة ، شبيهاً بقـــالب كبير من السكر الممزوج بعصير التفاح . وأخذت لويز وكاترين ولورانس ، كلٌ بدورها ، تلصق عينها بأحد طرفيه : فاذا هو سحر الألوان والأشكال التي تتركب وتنحل وتخفق وتتضاعف في سيمترية شكل ثمانيّ الأضلاع . صندوق فرجة لا شيء في داخله ؛ إنه العالم الذي يقدّم المادة : زهور الأضاليـــا ، والسجاد ، والستائر والكتب . ويتطلّع جان – شارل ، هو أيضاً ، ويقول :

– إن هـــذا يقدّم خدمات عظيمة لرّسام أقمشة أو ورق تأثيث . عشر افكار في الدقيقة ...

وتقدّم لورانس الحساء الذي يلتهمه أبوها بغير تعليق (لقد قال لها يومــاً : « أنت لا تأكلين ، وإنما أنت تتغذّين ، إنها مثل جان – شارل لامبالية بمبــاهج المآكل) . ويروي للصغيرتين حكايات تضحكهما ، ثم يسألهما من غير أن يبــدو عليه انه يطرح أسئلة . إن من الطريف أن يتنزّه المرء في القمر ، فهل تراهمـــا

تخافان أن تذهبا اليه ؟ لا ، على الاطلاق ، فاذا أمكن الذهاب اليه ، فهذا يعني أن ذلك ممكن ، ولن يكون هـذا أخطر من ركوب طائرة . ورجل الفضاء لم يدهشها على الإطلاق ؛ بل هما قــد وجدتاه في التلفزيون أقرب الى أن يكون مرتبكاً أخرق ؛ وكان قد سبق لهما أن قرأتا هذه الحكاية في شرائط مرسومة، بل وحق حكاية نزول في القمر ، غير أنّ ما يدهشها أن أحـداً لم ينزل بعدُ من القمر . انهما تودّان أن تعرفـا هؤلاء البشر ، هؤلاء البشر الأعلين ، هؤلاء البشر الادنين الذين حدثهما عنهم أبوهمـا والذين يعيشون على كواكب أخرى . إنهـما تصفانهم ، وتتنازعان الكلام ، يثيرهما ضجيج صوتيهما ، وحضور جدّهمـــا ، وبذخ الطعام النسبيّ . هل يعطون دروساً في علم الفلك في الليسيه ؟ وتقول لويز ان لا ، ولكننا نتسلى كثيراً. وتتحدث كاترين عن صديقتها بريجيت التي تكبرها بعام ، والتي هي شديدة الذكاء ، وعن استاذ الفرنسية الذي لا يخلو من غبـاء . وأين غباؤه ؟ فروت غباوات . ولم يكن بالإمكان الحصول على أكثر من ذلك . وفيما كانتا تلتهمان مثلجات بالأناناس ، ابتهلتا الى جدّهما أن يأخذهما ذات أحـد في نزهة بالسيارة ، كما وعدهما . قصور اللوار ، تلك التي يتحدث عنها تاريـــخ فرنسا ...

وعندما وجدوا أنفسهم وحيدين هم الثلاثة سأل جان – شارل :

– ألا تعتقدان أن لورانس قلقة من أجـــل لا شيء ؟ إن جميع الأولاد الأذكياء الذين في سن كاترين يطرحون على أنفسهم أسئلة .

قالت لورانس :

– ولماذا هذه الأسئلة ؟ إن لها حياة محمية جداً .

فقال أبوها :

– أية حياة هي اليوم محميّة ، مع الصحف ، والتلفزيون والسينما ؟

قالت لورانس :

– أما بشأن التلفزيون ، فانني حذرة تماماً . ونحن لا نترك الصحف ملقـاة هنا وهناك .

لقد منعت كاترين من قراءة الصحف ، وشرحت لها ، بالأمثال ، بان من كانت جاهلة توشك أن تفهم الامور خاطئة ؛ وأن الصحف تكذب كثيراً .

– إنك لا تستطيعين على أي حال ، مراقبة كل شيء . هل تعرفين صديقتها الصغيرة الجديدة ؟

– لا .

– قولي لها أن تصحبها . حاولي أن تعرفي من هي وعمّ تتحدث مع كاترين.

قال جان – شارل :

– إن كاترين على كل حال مرحة ، وهي في صحة جيدة . وتعمل جيـداً . فلا مجال لحمل أزمة حساسية صغيرة على محمل مأساوي .

كانت لورانس تودّ أن تفكر بان جان – شارل على حق . وحين اتجهت الى غرفة الصغيرتين لتقبلهما ، كانتا تقفزان على سريرهما وتنقلبان وهما تضحكان ضحكاً قويـاً . فضحكت معهما . وأحاطتهما ، ولكنها تذكرت وجه كاترين القلق . من هي بريجيت ؟ كان عليّ اليوم أن اتساءل عن ذلـك حق ولو لم تكن تلعب أي دور في هذه القضية . إن أشياء كثيرة ، أكثر مما ينبغي ، تفلت مني.

وعادت الى غرفة الجلوس . وكان أبوها وجان – شارل خائضين في واحدة من هذه المناقشات التي تنصب كلاً منهما في وجه الآخر كل يوم اربعاء .

وقال جان – شارل في نفاد صبر :

– ولكن لا؛ إن الناس لم يفقدوا جذورهم.الجديد في الأمر انهم متجذّرون كوكبياً .

– إنهم ليسوا بعدُ في أي مكان ، فيما هم موجودون في كل مكان . ولم يسبق قطّ أن كان السفر سيئاً الى هذا الحدّ .

– أنت تريد أن يكون السفر اغتراباً . ولكن الأرض ليست بعدُ إلا بلداً واحداً . الى حدّ أن المرء يدهش أن يتطلب الانتقالُ من مكان الى آخر وقتاً .

ونظر جان – شارل الى لورانس :

– هل تذكرين عودتنـا الأخيرة من نيويورك ؟ لقد تعوّدنا على النفاثات الى

حدّ ان سبع ساعات من الطيران قد بدت لنا وقتاً سرمداً .

– إن بروست يقول الشيء نفسه عن التلفون . ألا تذكر ذلك ؟ إنه حين يتصل بجدّته في « رونسيير » يلاحظ أن معجزة هذا الصوت البعيد قد غدت مألوفة لديه الى حدّ ان الانتظار يغيظه .

قال جان – شارل :

– لا أذكر ذلك .

– إن أطفال هذا الجيل يجدون من الطبيعي التنزّه في الفضاء . ليس ثمة ما يُدهش أحداً بعد . ولن يلبث التكنيك طويلاً حتى يبدو لنا الطبيعة نفسها ، وسنعيش في عالم لا إنساني تماماً .

– لماذا لا إنساني ؟ إن وجه الانسان سيتغير ؛ فليس بالإمكان حجزه في مفهومٍ جامد لا يتغير . ولكن الفراغ سيتيح له أن يجد من جديد تلك القيم التي تحرص عليها كلّ هذا الحرص : الفرد ، والفنّ .

– إن الانسان لا يسلك هذا الطريق .

– بلى ! انظر الى الفنّ التزييني ؛ وانظر الى الهندسة المعمارية . إن الناس لا يكتفون بعدُ بالوظيفي . ونحن نعود الى نزعة الغريب واللامألوف ، أي الى قيم جمالية .

وفكرت لورانس : ما جدوى ذلك ؟ إن الزمن ، على أي حال ، لن يجري أسرعَ ولا أبطأ . إن جان – شارل بدأ يعيش في عام ١٩٨٥ ، وأبي متحسّر على عام ١٩٢٥ . أنه على الأقل يتحدث عن عالم قد وُجد ، وقد أحبّه : أما جان – شارل فيخترع عالماً قد لا يتحقق أبداً .

وقال :

– اعترفوا بأننا لا يمكن أن نجد ما هو أبشع من منظر السكك الحديدية في الزمن الماضي . أما الآن فان الشركة الوطنية للسكك الحديدية وشركة كهرباء فرنسا تبذلان جهداً كبيراً للحفاظ على جمال المناظر الطبيعية .

– بل هو جهد سيء الحظ .

– على الاطلاق .

وأخذ جان – شارل يعدّد محطات ومراكز توليد كهربائية منسجمة تمام الانسجام مع ما يحيط بها . وفي هذه المنازعات ، كان دائماً هو المنتصر لأنه يستشهد بوقائع . وابتسمت لورانس لوالدها الذي لزم الصمت ، ولكن الشعاع في عينيه وبروز الثنية على فمه كانا يدلان على انه يحتفظ بمعتقداته .

وفكرت لورانس بأنه على وشك الذهاب ، وهي هذه المرة أيضاً تكون قد فوّتت الاستفادة منه . فما الذي لا يجري عندي على غير ما يرام ؟ انني أفكّر دائماً بأشياء أخرى .

وقال جان – شارل بعد مضيّ ساعة :

– إن أباك هو حقاً نموذج الرجل الذي يرفض الدخول في القرن العشرين .

فقالت لورانس وهي تبتسم :

– أما أنت ، فتعيش في القرن الواحد والعشرين .

وجلست الى طاولتها . وكان عليها أن تفحص التحقيقات الحديثة التي أشرف عليها لوسيان ؛ وفتحت الملفّ . إن هذا لمضجر ، بل مذلّ . الأملس ، اللامع ، المشعّ ، حلم الانزلاق والإتقان المثلج ؛ قِيم الغزَل وقِيم الطفولة (البراءة) ؛ السرعة ، السيطرة ، الحرارة ، الأمان . هل يمكن لجميع الأذواق أن تفسّر بأهواء بدائية الى هذا الحدّ ؟ أم أنّ المستهلكين الذين سُمّوا هم متأخرون بصورة خاصة ؟ هذا مشكوك فيه . إن علماء النفس هؤلاء يقومون بعمل عاق : أسئلة لا تعد ، دقائق في الاستجواب ، حيلٌ بارعة ، ومع ذلك فهم يسقطون دائماً على الأجوبة نفسها . إن الناس يريدون الجديد ، ولكن من غير مخاطرة ؛ يريدون المسلي ، على أن يكون رصيناً ؛ يريدون النفوذ والتأثير ، على ألا يكون ثمنها غالياً ... أما هي ، فان القضية بالنسبة اليها هي نفسها دائماً : الإغراء ، والإدهاش مع التطمين ؛ النتاج السحري الذي يقلب حياتنا من غير أن يبدّل فيها شيئاً .

وسألت :

ـ هل كنت تطرح على نفسك كثيراً من الأسئلة وأنت صغير ؟
ـ أعتقد ذلك .
ـ ألا تذكر ما هي ؟
ـ لا .

وعاد يستغرق في كتابه . إنه يدّعي انه نسي كل شيء من طفولته . كان له أب من صغار الصناعيين في النورمندي ، واخوان ، وعلاقات طبيعية مع أمه : فليس ثمة أي مبرّر للهرب من ماضيه ، والواقع انه لا يتحدث عنه مطلقاً .

إنه يقرأ . وما دام هـذا الملف يُضجرها ، فبوسعها هي أيضاً أن تقرأ . ماذا ؟ إن جان ـ شارل مغرمٌ بالكتب التي لا تقول شيئاً . لو تفهم ، إن ما هو فظيع لدى هؤلاء المؤلفين الشبّان ، هو أنهم لا يكتبون ليرووا شيئاً ؛ انهم يكتبون ليكتبوا ، شأن الذين يصفّون حجراً فوق حجر ، للاستمتاع ليس غير . لقد بدأت تقرأ وصفاً لجسر معلق يقع في ثلاثمئة صفحة ؛ فلم تستطع الصمود عشر دقائق . أما الروايات التي ينصحها لوسيان بقراءتها ، فهي تتحدث عن أشخاص وأحداث بعيدةٍ عن حياتها بُعد مونتفردي .

فليكن . إن الأدب لم يعد يعني شيئاً لي . ولكن عليّ ان اثقف نفسي : فقد أصبحت على غاية الجهل ! كان بابا يقول : « إن لورانس ستكون مثلي : فأر مكتبة . » وبدلاً من هذا ... لماذا تراجعت خلال السنوات الاولى من زواجها، لقد فهمت سبب ذلك ، فالحالة تقليدية . الحب ، الامومة ، وإنها لصدمة انفعالية عنيفة حين تتزوج الفتاة في سن مبكرة ، وحين لا يكون قد قام بين الادراك والإحساس توازن منسجم . كان يخيّل إليّ أن لا مستقبل بعدُ لي : لقد كان لجان ـ شارل وللصغيرتين مستقبل ؛ اما أنا ، فلا ؛ وإذن فما جدوى تثقيف نفسي ؟ إنها لدائرة مفرغة : كنت أهمل نفسي ، وكنت أعاني السأم ، وكنت أحسّني أكثر فأكثر منزوعة من نفسي . (وبالطبع كان لانهيارها العصبي أسباب أعمق ، ولكنها لم تكن بحاجة الى علم نفس تحليلي لتخرج منه ؛ لقد أخذت مهنة أثارت اهتمامها ؛ فكان أن استردّت نفسها) . والآن ؟ إن القضية قضية

أخرى : فأنا بحاجةٍ الى وقت؛ إن الأفكار التي ينبغي العثور عليها، والشعارات التي يجب تحريرها تتحول الى تسلط . ومع ذلك ، وبعد أن دخلت الى بوبلانف تماماً ، كانت تقرأ الصحف على الأقل ؛ أما الآن فهي تستريح على جان — شارل لتطلع على الأحداث : وهذا غير كافٍ . كانت الآنسة هوشيه تقول : « اتخذوا لأنفسكم رأياً خاصاً » وستصاب بخيبة شديدة إذا رأتني الآن !

ومدّت لورانس يدها الى جريدة « لوموند » التي كانت ملقـــاة على طاولة بعمود واحد . إن ذلك لمثبّط ؛ كان ينبغي ألا يُترك طرف الخيط إطلاقـــاً ، وإلا فإن المرء يوشك على الغرق : ان كلّ شيء قد بدأ دائماً من قبل . مـــا هي « البوروندي » ؟ وما هو الـ « O. C. A. M » ؟ ولماذا يثور الكهنة البوذيون ؟ و منْ كان الجـنرال ديلغادو ؟ وأين تقع غانا تماماً ؟ وتطوي الجريدة ، وقـــد تعزّت مع ذلك ، لأن المرء لا يعرف أبداً ماذا عساه يكتشف في ذلك . لقـــد جهـــدت في أن أصفـّح نفسي ، وهأنذا لست صلبة مثلهم . ان جان — شارل يشرح ذلك بأنه « الجانب التشنجي في النساء » بالرغم من أنـــه مؤيدٌ للمرأة . انني أصارع هذا الجانب، وأنا أشمئز من ان أتشنج ، فالأفضل إذن تجنب الفرص المؤدية لذلك .

وتناولت الملفّ من جديد . لماذا نحن موجودون ؟ ليست هـذه مشكلتي . اننا موجودون . والقضية هي ألا نحس بذلك ، وأن نتجه في انطلاقنا ، وأن نمضي دفعة واحدة حتى الموت . لقد تحطمت الانطلاقة منذ خمسة أعوام . وقد وثبت مرة أخرى . ولكن الزمن طويـــل ، والمرء يسقط مـرة أخرى . ان قضيتي هي هذا الانهيار ، من حين الى حـين ، كما لو أنه كان ثمة جواب على سؤال كاترين ، جواب مرعب . ولكن لا ! ان التفكير بهذا هو بدء الانزلاق نحـــو العُصاب . وأنا لن أسقط مـرة أخرى . انني الآن مستدركة محتاطـــة ، انني مسلحة ، وأنا مالكة زمام أمري . والحق انني لا أجهل أسباب أزمتي الحقيقية، وقد تجاوزتها : لقد بسّطت النزاع الذي ينصب مشاعري ازاء جان — شارل في وجه المشاعر التي أحسُّ بها تجـاه أبي ؛ ان هذا الصراع لا يمزقني بعد . فأنا على

وضوح كامل مع نفسي .

كانت الصغيرتان نائمتين ، وكان جان – شارل يقرأ . وفي مكان ما كان لوسيان يفكر فيها . وكانت تحس حياتها حولها ، ممتلئة ، حارة ، عشاً ، فيلجة ، ويكفي شيء من الاحتراس حتى يعجز كلّ شيء عن صَدْع هذه الطمأنينة والأمان .

الفصل الثاني

« لماذا يريــد جيلبير أن يراني ؟ » كانت جميع بيوت « نويي » ، في قلب الحدائق المبتلّة التي تنبعث منهــا رائحة الخريف والريف ، أشبه بعيادات .
« لا تحدّثي في ذلك دومينيك » . وكان في صوتــه خوف . هل هو سرطان ؟ أم أنه القلب ؟

– شكراً لك أنك جئت .

انسجام في الألوان الرماديــة والحمراء ، موكيت سوداء ، كتب نادرة على الرفوف الخشبية الثمينة ، لوحتان عصريتان تحملان توقيعين ثمينين ، مجموعــة آلات إنتاج الصوت ، بار : هوذا مكتب الملياردير الذي يُراد بيعُه لكل زبون بثمن قطع قماش للأثاث أو رفّ من خشب الصنوبر .

– قليل من الويسكي ؟

– لا شكراً (إن في حلقها عقدة) ماذا هنالك ؟

– عصير فاكهة ؟

– موافقة .

فقدّم لها عصير الفاكهة ، ووضع قطع الثلج في قدحه ، على مهل . لأنه كان متعوداً على إجراء اللعبة وعلى ألاّ يتكلم إلاّ في ساعته : أم أنه مرتبك ؟

– إنك تعرفين دومينيك جيداً : وتستطيعين أن تقدّمي لي نصيحة .

القلب ، أم هو سرطان . فلكي يطلب جيلبير نصيحة من لورانس ، لا بــدّ أن الأمر خطير . وسمعت كلاماً بقي معلقاً في الهواء ، مجرداً من المعنى :

– إنني مغرم بفتاة صبية .

– ماذا تعني ؟

– مغرم . عاشق . فتاة في التاسعة عشرة !

ورسم فمه بسمة مستديرة ، وتكلم بصوت أبوي ، كما لو أنه كان يشرح لامرأة متخلفة حقيقة بسيطة جداً :

– ليس من النادر اليوم أن تحب فتاة في التاسعة عشرة رجلاً يتجاوز الخمسين .

– أهي تحبك أيضاً ؟

– نعم .

وصاحت لورانس ، بغير صوت ، لا . ماما ! يا لأمي المسكينة ! إنها لا تريد أن تسأل جيلبير ، ولا تريد أن تساعده على توضيح ما يقول . ولزم هو الصمت . واستسلمت هي . إنها ليست على مستواه :

– وإذن ؟

– وإذن ، فسنتزوج .

وهذه المرة صرخت بصوت عال :

– ولكن هذا مستحيل .

– إن ماري – كلير تقبل الطلاق . فهي تعرف باتريسيا وتحبها كثيراً .

– باتريسيا ؟

– نعم . ابنة لوسيل دوسان شامون .

فردّدت لورانس :

– هذا مستحيل !

لقد رأت باتريسيا ذات مرة ، وكانت طفلة في الثانية عشرة ، شقراء متصنّعة ؛ وصورتها في العام الماضي وهي ترتدي ثوباً أبيض في حفلة راقصة ؛ ديك رومي فاتن ، مفلسة تقذف بها أمها بين أذرع الأغنياء .

– إنك لن تترك دومينيك : سبعة أعوام !

– بل من أجل هذا بالذات !

واتخذ لهجته الوقحة ، واستدار فمه مطلقاً بسمة . إنه بكل بساطة

متوحّش . وأحسّت لورانس قلبها يخفق ، قوياً جداً ، سريعاً جداً ! ورأت واحداً من هذه الكوابيس التي لا يعرف المرء هل تحدث له حقاً أو أنه يشهد فيلماً من أفلام الرعب . إن ماري – كلير توافق على الطلاق ؛ طبعاً ، فهي سعيدة أكثر مما ينبغي أن تلعب دوراً قذراً مع دومينيك .

– ولكن دومينيك تحبك . وهي تعتقد أنكما ستنهيان حياتكما جنباً الى جنب . إنها لن تحتمل أن تُهجَر .

قال جيلبير :

– بل ستحتمل ، ستحتمل .

وصمتت لورانس ؛ إنها تعلم أن جميع الكلمات غير مُجدية .

– كفى ، لا تتخذي هذه الهيئة المتبرّمة . إن لأمك قوة ونفوذاً . إنها تدرك أن امرأة في الواحدة والخمسين هي أكبر سناً من رجل في السادسة والخمسين . إنها حريصة على عملها ، وعلى حياتها الاجتماعية ، وستكون عاقلة . غير أنني أتساءل ، وها هنا أريد أن أستشيرك ، ما هي أفضل طريقة لتقديم الأمور لها .

– ستكون جميع الطرق رديئة .

ونظر جيلبير الى لورانس بهذه الهيئة المسحورة التي أكسبته شهرة الساحر :

– إنني شديد الثقة بحُكمك . فهل ترين أن أقول لها فقط إنني لا أحبها بعد ، أو أن أحدثها مباشرة عن باتريسيا ؟

فقالت لورانس بابتهال :

– لا تفعل ، إنها لن تحتمل هذا .

– سأتحدّث اليها بعد ظهر الغد، فتدبّري أمرك لكي ترَيها في نهاية النهار . ستكون بحاجة الى أحد . وستخابرينني لتبلغيني ردّ فعلها .

قالت لورانس :

– آه ! لا ، لا !

– القضية هي إيجاد الطريقة لإيذائها بأقلّ قدر ممكن ، بل أنا أود لو

أستطيع الاحتفاظ بصداقتها ؛ وهذا من أجلها هي .

ونهضت لورانس فاتجهت نحو الباب ، فقبض على ذراعها :

ـ لا تحدّثيها عن هذا الحوار .

ـ سأفعل ما يروق لي .

وتمتم جيلبير خلفها بعض الكلام العابث ، ولم تمـدّ له يدها ، بل صفقت الباب ؛ إنها تكرهه . وكان عزاءً لها أن تعترف لنفسها فجأة : « لقد احتقرت جيلبير دائماً . » وسارت وهي تسحق الأوراق الميتة ، وكان الخوف حولها كثيفاً كالضباب ؛ ولكنّ هناك حقيقةً مضيئة ، قاسية ، كانت تخرق هـذه الظلمات : « إنني أكرهـه ! » وفكرت « وستكرهه دومينيك ! » وشعرت بأنها فخور ، وقوية . « إن المرأة الحقيقية لا تتصرّف تصرّف الخيّاطات » سوف تتألم ، ولكن كبرياءها ستنقذها . دور شاقّ ولكنه جميـل : المرأة التي تتقبّل القطيعة ولكن بأناقة . سوف ترتمي في العمل ، وستتخذ لهـا عشيقاً جديداً ... وماذا يحدث لو ذهبت أنا بنفسي أبلغها على الفور ؟ وظلت لورانس جالسة ، جامدة ، على مقود سيارتها . وسالت عَرَقاً فجأة ، وأخذتها الرغبة في القيء . من المستحيل أن تستمع دومينيك الى هذه الكلمات التي يريد جيلبير أن يقولها لها . سيحدث شيء ما : سيموت في الليل ، أو هي تموت . أو تُنسَف الأرض .

غداً هو اليوم ؛ ولم تُنسَف الأرض . وأوقفت لورانس سيارتهـا في ممر مسمَّر ، غير مبالية بالمخالفة . وكانت قـد خابرت من المكتب ثلاث مرات وسمعت الجرس : مشغول . لا بدّ أن دومينيك قد رفعت السماعة . وصعـدت في المصعد ، ومسحت يديها الدبقتين . المهم أن تبدو طبيعية .

ـ هل أزعجك ؟ انني لم أنجح في الاتصال بك تليفونيـاً ، وكنت أريد استشارتك بأمر .

وكان هـذا مختلقاً برمّته ، فهي لا تستشير أمها في شيء ، ولكن دومينيك لم تكد تصغي اليها :

– ادخلي .

وجلستا في زاويـة « الاستراحة – الصمت » في الصالون الكبير الملبّد الجدران. وكان في أحد الأواني باقةٌ ضخمة من الزهر الأصفر الحادّ الذي يشبه عصافير شريرة . وكانت عينا دومينيك متورمتين . أهي تبكي إذن ؟ وقذفتْ بلهجة تحدٍّ تـكاد تكون منتصرة :

– عندي خبر جميل أرويه لك .

– ما هو ؟

– لقد أخبرني جيلبير انه يحبّ امرأة أخرى .

– إن هذا مزاح ! ومَنْ هي ؟

– لم يقل لي اسمها . غير أنه شرح لي انه لا بد « من أن نضع علاقاتنا على صعيد آخر » . يا للصيغة الجميلة ! وهو لن يأتي الى « فوفرول » في نهاية هـذا الاسبوع ...

وارتعش الصوت الصافر بالحقد :

– إنه إذن يتركني ! ولكنني سأعرف من هي هذه المرأة ، وأقسم لك انني لن أعاملها معاملة حسنة !

وتردّدت لورانس : هل تنتهي من القضية كلها ؟ وخانتها شجاعتها ، وكانت خائفة . الأفضل كسب الوقت .

– ليس هذا ، بلا شك ، إلا هوًى صغيراً .

– ليس لدى جيلبير أية أهواء ؛ ليس لديه إلا إرادات .

وندّ منها زعيق مفاجىء :

– النذل القذر !

فأخذت لورانس أمها من كتفيها :

– لا تصرخي .

– بل سأصرخ ما حلا لي الصراخ . نذلٌ قذر ! نذر قذر !

وما كانت لورانس لتستطيع أن تتخيّل أمها وهي تصرخ هكذا ، ولا أن تتخيّل أحداً يصرخ هكذا : إنه أشبه بتمثيلية رديئة . هذا مقبول في المسرح؛ أما في الحيـــاة .. وظلّ الصوت يرتفع ، حادّاً ، غير محتشم في دفء زاوية الاستراحة الصمت :

– نذل قذر ! نذل قذر !

(وفي صالون آخر ، مختلف كل الاختلاف ، شبيه كل الشبه ، مع أوان ملأى بالزهور الفاخرة ، كان الصراخ نفسه يخرج من فم آخر : « نذل قذر ! »)

وانهارت دومينيك على الديوان ، وأخذت تجهش :

– هل تتصورين ذلك ؟ أن يفعل ذلك معي أنا ! إنـــه يتركني كما تُترك الخيّاطات !

– ألم تكوني تشعرين بشيء ؟

– على الإطلاق . لقد خدعني تماماً . وانت قد رأيته يوم الأحد المـاضي : كانت بسمته تملأ الدنيا .

– ما الذي قاله بالضبط ؟

فانتصبت دومينيك ، وأمرّت يدها في شعرها ، وكان دمعها يسيل :

– إن عليه أن يصارحني بالحقيقة . إنه يقدّرني ، وهو معجب بي ؛ الكلام الفارغ المألوف . ولكنه يحبّ امرأة أخرى .

– ألم تسأليه عن اسمها ؟

فتمتمت دومينيك بين أسنانها :

– لقد أُسقط في يدي .

ومسحت عينيها :

– إنني أسمعهنّ من هنا ، جميع الصديقات الصغيرات الطيبات : إن جيلبير مورتييه قد هجر دومينيك . كم سيطربن ويهلّلن !

– استبدلي به آخر على الفور : هناك عدد كاف من الرجال الذين يغازلونك .

– أصدّقهم تماماً : إنهم وصوليون صغار ...

– سافري الى الخارج ؛ أظهري لهم انك تستطيعين أن تستغني عنه . إنه نذل قذر ، وأنتِ على حق في ذلك . تدبّري أمرك لتنسيْه .

– سيكون مسروراً بهذا أكثر مما ينبغي ! إن هذا يناسبه تماماً !

ونهضت وراحت تذرع الصالون جيئة وذهاباً :

– سوف أستردّه . بطريقة أو بأخرى ...

ونظرت الى لورانس بعينين ينبعث منهما الشرّ :

– لقد كان حظّي الأخير . إفهمي هذا .

– ولكن لا .

– كفى ، كفى ! إن من كانت في الواحدة والخمسين لا تصنع حياتها من جديد .

وردّدت بصوت أحمق :

– سوف أسترده ! رضى أو قسراً !

– قسراً ؟

– إذا وجدت وسيلة للضغط عليه .

– أية وسيلة ؟

– سأبحث عنها .

– ولكن ماذا يجديك أن تحتفظي به ، إن كان ذلك قسراً ؟

– أن أحتفظ به . لن أكون امرأة مهجورة .

وعادت تجلس مسمّرة العينين ، مزمومة الفم . وتكلمت لورانس ، فقالت كلماتٍ كانت قد تلقتها من شفتي أمها؛ كرامة، هدوء، شجاعة، احترام الذات، الظهور بالمظهر الجيّد ، التصرف على نحو كريم ، تمثيل الدور الجميل . ولم تجب دومينيك بشيء . ثم قالت بصوت متعَب :

– عودي الى بيتك . أنا بحاجة الى التفكير . وتلطّفي بمخابرة آل بتريداس بأني مصابة بالتهاب في اللوزتين .

– هل تستطيعين أن تنامي ؟

– على كل حال لن أبالغ في تناول المنوّمات ، إن كان هذا هو ما يقلقك .

وتناولت يدي لورانس ، في حركة غير مألوفة ، مزعجة ؛ وتشنجت أصابعها على الرسغين :

– حاولي أن تعرفي من تكون هذه المرأة .

– إنني لا أعرف وسط جيلبير .

– حاولي مع ذلك .

وهبطت لورانس السلّم على مهل . وكان شيء ما يختلج في صدرها ويمنعها من التنفّس . إنها تؤثر أن تذوب حناناً وحزناً . ولكن هناك هذه الصرخة في مسمعها ، وهي ترى من جديد تلك النظرة الشريرة . غضب وكبرياء جريح ، ألم أشد تمزيقاً من عذاب الحبّ : ولكن بلا حب . من ذا الذي يحب جيلبير حباً حقيقياً ؟ ودومينيك أتراها قد أحبّت يوماً ؟ هل تستطيع أن تحب ؟ (كان يمشي في البيت كأنه روح معذّبة ، كان قد أحبها ، وكان ما يزال يحبها . وكانت لورانس تذوب حزناً وحناناً . ومنذ ذلك الحين ، أحاط بدومينيك ما يشبه هالةً مؤذية .) إن عذابها بالذات لا يؤنسنها . إنه أشبه بسماع صرير سرطان بحري ، أو ضجة غير واضحة ، لا توحي بشيء إلا بالألم العاري . إنه أشدّ استعصاء على الاحتمال مما لو كان بالإمكان مشاطرته .

* * *

كنت أحاول ألاّ أسمع ، ولكن السرطان البحري كان ما يزال يصرّ في أذنيّ حين بلغت المنزل . وكانت لويز تخفق بياض البيض في المطبخ ، تحت رقابة غويا ، فقبلتها .

– هل عادت كاترين ؟

– إنها في غرفتها ، مع بريجيت .

وكانتا جالستين إحداهما قبالة الأخرى ، في الظــلام . وأضاءت النور ، فنهضت بريجيت :

– مساء الخير يا سيدتي .

ولاحظت على الفور الدبّوس الضخم المزروع في كفــاف تنورتها : كنت أعرف من كاترين انها ابنة لا أم لها ؛ وكانت طويلة ، هزيلة، ذات شعر كستنائي قصير ورديء التسريح ، وكانت ترتدي كنزة ذات لون أزرق حائل، ولو كانت أكثر ترتيباً لاستطاعت أن تكون جميلة . وكانت الغرفة مضطربة بكراسيها المقلوبة ووسائدها الملقاة أرضاً .

– انني سعيدة بالتعرّف عليك .

وقبلت كاترين :

– بِمَ تلعبان ؟

– كنا نتحدث .

– وهذه الفوضى ؟

– اوه ؟ كنا منذ حين مع لويز نقوم بأعمال جنونية .

قالت بريجيت :

– سننظم الغرفة .

– ليست القضية مستعجلة .

وأوقفت كرسياً فجلست عليه . كنت لا أبالي أن يكنّ قد ركضن وقفزن وقلبن الأثاث ؛ ولكن عمّ كانتا تتحدثان حين دخلت ؟

– عمّ كنتما تتحدثان ؟

فقالت كاترين :

– هكذا ، كنا نتحدث .

وكانت بريجيت واقفة قربي تتفحّصني بلا وقاحة ، ولكن بفضول واضح . وكنت منزعجة بعض الشيء . إن البالغين لا ينظرون إلى بعضهم حقــاً . أما هاتان العينان ، فقــد كانتا ترياني . وتناولت من على الطاولة « دون

كيشوت » – نص مختصر ومصوّر – الذي كانت كاترين قد أعارته إلى صديقتها .

– هل قرأته ؟ وهل أحببته ؟ ولكن اجلسي .

فجلست :

– لم أتمّه .

وبسمت لي بسمة جميلة جداً ، بعيدة عن أن تكون طفولية ، بل هي لا تخلو من تظرُّف :

– انني أضجر إذا كان الكتاب طويلاً أكثر مما ينبغي . ثم انني أفضّل القصص الحقيقية .

– القصص التاريخية ؟

– نعم . والرحلات ، وما يُقرأ في الصحف .

– هل يتركك البابا تقرأين الصحف ؟

فبدت عليها الدهشة ، ثم تمتمت بصوت متردد :

– نعم .

وفكرت بأن أبي على حقّ ، فأنا لا أراقب كل شيء . فماذا لو أنها كانت تحمل الجرائد الى الليسيه ، وتروي ما قرأته فيها ... جميع هذه الأخبار الفظيعة : الأطفال المقتولون ، الأطفال الذين تُغرقهم أمهاتهم بالذات ...

– هل تفهمين كل شيء ؟

– أخي يشرح لي .

إن أخاها طالب ، وأباها طبيب . وحيدة بين رجلين . لا بدّ أنها لا تُراقب كثيراً . إن لوسيان يدّعي أن الفتيات الصغيرات اللواتي لهن أخوة أكبر منهنّ ، ينضجن أسرع من الأخريات : وربما كان بسبب ذلك أنها قد بدأت تتخذ حركات امرأة صغيرة .

– ماذا تنوين أن تفعلي فيما بعد ؟ هل لديك مشاريع ؟

فتبادلنا نظرة متواطئة ، وقالت كاترين :

– سأكون طبيبة . أما هي فستكون عالمة زراعية .

– عالمة زراعية ؟ هل تحبين الريف ؟

– إن جدي يقول إن المستقبل متوقف على العلماء الزراعيين .

ولم أجرؤ على أن أسألها من يكون جدّها ذاك . ونظرت ساعتي . كانت الثامنة إلا ربعاً .

– يجب على كاترين أن تذهب فتستعدّ للعشاء . وأعتقد انهم في منزلكم ينتظرونك أنتِ أيضاً .

فقالت بلهجة لامبالية :

– اوه ! إنهم عندنا يتناولون العشاء حين يريدون . وبالتأكيد ليس في البيت أحد الآن بعد .

أجل ، كانت حالتها واضحة . فتاة صغيرة متروكة تعلّمت أن تكفي نفسها بنفسها . ولم يكن يُسمح لها أو يمنع عنها شيء ؛ وكانت تنمو بالاتفاق . كم تبدو كاترين ، بالمقارنة ، طفولية ! وقد كان لطيفاً لو تدعوها للعشاء . ولكن جان – شارل يكره ما ليس متوقعاً . ولست أدري ، انني غير حريصة على أن يلتقي بريجيت .

– لقد آن أن تعودي الى البيت على كل حال . ولكن انتظري ، سأرفو لك تنورتك .

فأصبحت أذناها محمّرتين كلياً :

– أوه ! لا ضرورة لذلك .

– بلى ، فهذا قبيح .

– سأصلحها حين أعود الى البيت .

– دعيني على الأقل أسوّي الدبوس .

وسوّيته ، فبسمت لي :

– إنك لطيفة !

– أود لو نتعارف أفضل من ذلك . فهل يروق لك الذهاب يوم الخميس الى

« متحف الإنسان » مع كاترين ولويز ؟

– اوه ! نعم .

وصحبت كاترين بريجيت حتى الباب . وقد تهامستا وضحكتا . كنت أود لو أجلس في الظلام مع فتـــاة صغيرة من عمري وأن أضحك وأهمس . ولكن دومينيك كانت تقول دائماً : « إن رفيقتك هي بكل تأكيد لطيفة ، ولكنها يا حبيبتي عادية جداً . » وقـــد كان لمارت صديقة ، هي ابنة صديقٍ لأبي ، مغلقة وبليدة . أما أنا فلم تكن لي صديقة قط .

– انها لطيفة ، صديقتك الصغيرة .

– إننا نتسلّى كثيراً معاً .

– هل تحرز علامات جيدة ؟

– اوه ، نعم ، أحسن العلامات .

– إن علاماتك أضعف مما كانت في مطلع الشهر . فهل أنت متعَبة ؟

– لا .

ولم ألحّ .

– إنها أكبر منك سناً : ولهذا يسمحون لهـا أن تقرأ الصحف . ولكنك تذكرين ما قلته لك : إنك أنتِ ما تزالين أصغر مما يجب .

– أذكر ذلك .

– ولن تعصَيْ أمري ؟

– لا .

وكان في صوت كاترين بعض التردّد .

– لا يبدو عليك انك مقتنعة جداً .

– بلى . ولكن ما ترويه لي بريجيت ، ليس صعباً على الفهم .

فأحسستني مرتبكة . إن بريجيت تروق لي . ولكن هل يكون لهـا تأثير طيّب على كاترين ؟

– من الغريب أنها تريد أن تكون عالمة زراعية : هل تفهمين ذلك ؟

– أنا أفضل أن أكون طبيبة . سأشفي المرضى ، وهي ستُنبت القمح والطماطم في الصحارى ، فيتاح للجميع أن يأكلوا .

– هل أريْتها الاعلان الذي يبدو فيه الطفل الجائع ؟

– هي التي أرتني إيّاه .

طبعاً . وأرسلتها تغسل يديها وتسرّح شعرها ، ودخلت غرفة لويز . كانت جالسة إلى طاولتها ترسم . وتذكّرت . الغرفة المظلمة ، وفيها مصباح صغير مضاء ، وأقلام التلوين ، وخلفي نهار طويل مطرّز بلذاذات صغيرة ، والعالم في الخارج ، شاسع عجيب . لحظات ثمينة ضائعة الى الأبد . أيـة خسارة ! تمنعهنّ من أن يكبرن . أو ماذا ... إذن ؟

– إن رسمتك جميلة ، يا حبيبتي .

– إنني أعطيك إياها .

– شكراً . سأضعها على الطاولة . هل تسلّيت جيداً مع بريجيت ؟

– لقد علمتني بعض الرقصات ...

وداخل صوت لويز الحزن :

– ولكنها بعد ذلك طردتاني .

– كانتا تريدان أن تتحدثا . وهكذا استطعت أن تساعدي غويا في إعداد العشاء . وسيكون بابا معتزّاً حين يعلم أنك أنت تقريباً من أعدّ العجّة .

فضحكت ، ثم سمعنا المفتاح يُدار في القفل فأسرعت لاستقبال أبيها .

كان ذلك أمس . ولورانس قلقة . إنهـا تستعيد بسمة بريجيت : « أنت لطيفة » فترقّ لها . إن من الممكن لهذه الصداقة أن تفيد كاترين ؛ إنها في سنّ الاهتمام بما يجري في العالم ؛ أما أنا فلا أحدّثها عنه بما فيه الكفاية ، وأبوهـا يخيفها ؛ ولكن ينبغي كذلك ألا تُحدث لهـا مضاعفات . إن جدّيْ بريجيت لأمها يعيشان في إسرائيل ، وقد قضت العام الماضي معهما ، وهذا مـا جعلها تتأخر في دروسها . تُرى هل كان في أسرتهـا موتى ؟ وجميع تلك الفظائع التي جعلتني أبكي طويلاً ، هل روتها لكاترين ؟ يجب أن أكون متنبّهة ، وأن أكون

مطلـّعة ، وأن أرشد ابنتي بنفسي .

وحاولت لورانس أن تركز فكرها على « فرانس – سوار ». هــــذه أيضاً حادثة فظيعة . في الثانية عشرة من عمره : شنق نفسه في سجنه ؛ لقـــد طلب موزاً ومنشفة ؛ فشنق نفسه . « نفقات صغيرة غير متوقعة » كان جيلبير يشرح بأن في كل مجتمع بالضرورة نفقات صغيرة غير متوقعة . نعم ، بالضرورة . هذا لا يمنع أن هذه القصة ستهز كاترين .

جيلبير . « مغرم ، عاشق » أي نذل قذر ! لقد زعقت دومينيك في زاوية الاستراحة الصمت : « نذل قذر ! » وهذا الصباح ، قــالت في التلفون بصوت معتم إنها نامت جيداً ، ثم أغلقت السماعة بسرعة . مــا الذي أستطيع أن أعمل من أجلها ؟ لا شيء . من النادر جداً أن يستطيع أحد أن يعمل شيئاً من أجل شخص آخر ... من أجل كاترين ، بلى . فيحسُن إذن أن أفعله . أن أعرف كيف أجيب على أسئلتها ، بل أن أستبقها . أن أجعلها تكشف الحقيقة من غير إخافتها . من أجل هذا عليّ أولاً أن أستعلم . إن جان – شارل يأخذ عليّ أني لا أهتم بعصري ؛ فيجب أن أطلب منه أن يدلني على كتب . وأن أجبر نفسي على قراءتها . وليس جديداً هذا المشروع . إن لورانس تتخذ قرارات دورية ، ولكن من غير أن تنوي حقاً تنفيذها – لماذا حقاً ؟ – أمــا هذه المرة ، فالأمر مختلف . إن القضية هي قضيـــة كاترين . وهي لن تغفر لنفسها أن تقصّر في ذلك .

قال لوسيان :

– حسنٌ أنك هنا .

كانت لورانس جالسة ، بالروبديشامبر ، على الأريكة الجلدية ، وهو عنـد قدميها ، بالروبديشامبر ، ووجهه مرتفعٌ إليها .

– أنا أيضاً سعيدة .

– أتمنى لو تكونين دائماً هنا .

وكانا قد قاما بفعل الحب ، وتناولا عشاء خفيفاً ، وثرثرا ، ثم قاما مرة أخرى بفعل الحب . وكانت راضية مسرورة في هذه الغرفة ؛ كان ثمة سرير – ديوان مغطى بفرو ، وطاولة ، وأريكتان من الجلد الأسود مبتاعتان من سوق القمل ، وبعض الكتب على رف ، ومنظار فلكي وخريطة لدائرة الأرياح ، وآلة السُّدس ومزلاجان وحقائب من جلد الخنزير في إحدى الزوايا؛ لم يكن ثمة بذخ، فكل شيء لامبالٍ ، ولكن لم يكن هناك مجال للتعجب أن يحتوي المشجب هذا العدد الوافر من الأثواب الأنيقة ، والسترات من جلد الغزال ، والكنزات من الكشمير ، والوشاحات والأحذية .

وشق لوسيان ثوب لورانس فلامس ركبتها :

– إن لك ركبتين جميلتين . نادرة هي الركب الجميلة .

– إن لك يدين جميلتين .

إن جسمه دون جسم جان – شارل جمالاً ؛ إنه أشد هزالاً مما ينبغي ؛ ولكنّ يديه دقيقتان وعصبيتان ، ووجهه متحرك حساس ، ولحركاته جمال متعرج . إنه يعيش في عالم من لبد ، مليء بالفروق والألوان الخفيفة الفاتحة والغامقة ؛ في حين أن الوقت بالقرب من جان – شارل هو دائماً وقت ظهر : نورٌ متساوٍ قاس .

– هل تريدين أن تشربي شيئاً ؟

– لا ، ولكن اشرب أنت .

فصبّ لنفسه قدح بوربون من صنع نادر ، كما يبدو . كان الطعام قليلاً ما يهمّه ، ولكنه في مادة الكحول والخمور يعتز بأنه من العارفين ، وعاد يجلس عند قدمي لورانس :

– أراهن أنك لم تثملي قط .

– إنني لا أحب الكحول .

– لا تحبينه أم تخافين منه ؟

فلامست الشعر الأسود الذي كان يحتفظ بعذوبة طفولية :

– لا تمثل معي دور عالم النفس .

– ذلك أنك امرأة صغيرة طيبة ليس من السهل فهمها . فأنت أحياناً شابه ، مرحة ، قريبة جداً ، وأحياناً أخرى مينرفا ملعونة ذات قبعة .

كانت في البدء تحب أن يحدثها عن نفسها ؛ وجميع النساء يحببن ذلك ، ولم يكن جان – شارل قد أفسدها في هذه الناحية ، ولكن ذلك كان في الحقيقة بلا فائدة . كانت تعرف أكثر مما ينبغي ما كان يهم لوسيان ، أو بالأحرى ما كان يقلقه :

– ماذا ! كل شيء متوقف على تسريحة شعري .

وأراح رأسه على ركبتيها :

– دعيني أحلم خمس دقائق أننا سنبقى كذلك طوال الحياة . سوف يشيب شعرنا حتى من غير أن نحس بذلك . وستكونين سيدة عجوزاً رائعة .

– إحلم يا حبيبي .

لماذا تراه ينطق بهذه الحماقات ؟ إن حباً لا ينتهي يشبه ما تقوله الأغنية : « هذا غير موجود ، هذا غير موجود » . ولكن الصوت الكئيب أثار فيها ما يشبه صدى ملتاثاً لشيء قد سبق أن عيش ، في حياة أخرى ، أو ربما في هذه اللحظة ، على كوكب آخر . إنه لشيء متسلل ، خطر ، كأنه المطر ، ليلاً في غرفة مغلقة – عطر نرجس . وقالت بلهجة لا تخلو من جفاف :

– ستتعب مني .

– على الإطلاق .

– لا تكن رومانتيكياً .

– منذ حين انتحر طبيب ويده في يد زوجته التي كانت قد ماتت منذ أسبوع . هذا يحدث ...

فسألت وهي تضحك :

– ولكن ما هي الموتيفات ؟

فقال في عتاب :

– إنني لا أمزح .

لقد تركت الحديث يتخذ ببلادة وجهة عاطفيــة ، ولن يكون من اليسير أن تذهب . وقالت وهي تضغط يدها على خد لوسيان :

– إنني لا أحب أن أفكر بالمستقبل . فالحاضر يكفيني .

– هل هذا صحيح ؟

ونظر إليها بعينيه اللتين كانت صورتها تلمع فيهما ببريق لا يمكن مقاومته :

– إنك لا تعانين السأم معي ؟

– أية فكرة ! إنني معك أقل سأماً مني مع أي إنسان آخر .

– جواب عجيب !

– ذلك انك تطرح أسئلة عجيبة . هل كان يبدو عليّ السأم من هذا المساء ؟

– لا .

إن حديث لوسيان مسلّ . وهما معاً يتساءلان عن جماعــة بويلانف ، وعن الزبائن ، ويخترعان لهم مغامرات . أو يروي لوسيان روايات قرأها ، ويصف أمكنة رآها ، وهو يُحسن ايراد التفصيل الذي يوقظ في نفس لورانس رغبــة خفية في القراءة وفي السفر . لقــد تحدّث الساعة عن فيتز جرالد الذي لم تكن تعرفه إلا اسماً ، ويدهشها أن حياة غير واقعية الى هذا الحدّ قد أمكن أن تُعاش حقاً .

وقالت :

– لقد كانت أمسية ممتازة .

فانتفض :

– لماذا تقولين ذلك ؟ لقد كانت ... انها لم تنتهِ ...

– الساعة الثانية صباحاً . يجب يا حبيبي أن أعود إلى المنزل .

– كيف ؟ ألا تنامين هنا ؟

– إن الطفلتين أكبر مما ينبغي ، وذلك يصبح خطراً .

– اوه ! أرجوك .

ـ لا .

غالباً ما كانت تقول : لا ، في العام الماضي ، حين كان جان – شارل في مراكش . كانت تذهب ، ثم كانت توقف السيارة فجـأة ، فلتستدير نصف استدارة وتعود فتصعد السلم وهي تعدو . وكان يشدّها بين ذراعيه : « لقـد عُدت ! » وكانت تبقى حتى الفجر . بسبب ذلك الفرح على وجهه . ربما كان ذلك فخّـاً ككل الأفخاخ . أما اليوم فلن تعود . وهو يعرف ذلك .

– ماذا إذن ؟ أتراك لن تقضي معي ليلة من هذه الليالي ؟

فتصلّبت . وكان قد أقنع نفسه بأنها ستنام معه في أثناء غياب جان – شارل . ولكنها لم تعد بشيء .

– تصور أن ابنتيّ عرفتا . إن المخاطرة أكبر مما ينبغي .

– كنت تقومين بها في العام الماضي .

– وكنت أعاني من ذلك تبكيتاً في الضمير .

ونهضا كلاهما . وخطا في الغرفة خطوات واسعة وانزرع أمامها . والغضب بادٍ عليه :

– النغمة نفسها دائماً ! خائنة لزوجها بعض الشيء جانبياً ، ولكنها زوجة صالحة ، وأم صالحة . لماذا ليس ثمة كلمة تعني عاشقة رديئة ، عشيقة رديئة ...

واختنق صوته ، واضطرب نظره :

– هذا يعني أننا لن نقضي بعدُ أبداً ليلة معاً : لن تكون لنا فرصة أفضل.

– ربما بلى .

– لا . لأنك لا تخلقين مثل هذه الفرصة . اعترفي بأنك لا تحبينني بعد .

– لماذا تراني هنا إذن ؟

– إنك لا تحبينني بعد كالسابق . فمنذ عدت من العطلة أراك متغيرة عـن ذي قبل .

– أؤكد لك أن بلى . لقد قامت بيننا هذه المنازعة عشرين مرة ، من قبل.

دعني أرتدي ثيابي .

وصبّ لنفسه قدحاً آخر بينما اتجهت نحو الحمام ذي الرفوف المغطاة بالزجاجات والأواني . كان لوسيان يجمع العطور والدهون التي كان الزبائن يهدونها الى بوبلاف ، يجمعها للتسلية ولكن كذلك لأنه كان يهتم اهتماماً دقيقاً بشخصه. بكل تأكيد سأسحق ندمي ، لو أن الأمر كان كالسابق ؛ الاضطراب الذي يصعق ، الليل الذي يُشع ، دوامات الشهوات واللذائذ : إن بوسعنا أن نخون، ونكذب، ونجازف بكل شيء من أجل هذه التغيرات ؛ ولكننا لا نفعل ذلك من أجل هذه المداعبات اللطيفة.من أجل لذة شبيهة الى هذا الحد بتلك التي تتوفر لها مع جان – شارل ، لا من أجل هذه الانفعالات الهادئة التي هي جزء من الحياة اليومية . وقالت في نفسها : حق الخيانة الزوجية ، شيء وظيفي . إن تلك المنازعات التي كانت تحرّكها الى ذلك الحد ، اصبحت الآن ترهقها .

وحين عادت الى الغرفة ، كان قد أفرغ قدحه الثاني .

– لقد فهمت ، فاذهبي . لقد أردتِ مغامرة بدافع الفضول لأنك بالرغم من كل شيء تعتبرين نفسك حمقاء إن لم تخوني زوجك قط ... ولكن ليس أكثر من ذلك . وما لي أنا من أبله ، أنا الذي كنت أحدّثك عن الحب الخالد .

– هذا خطأ .

واقتربت ، وعانقته :

– إنني شديدة التعلق بك .

– شديدة التعلق ! وأنا لن أحصل من حياتك أبداً إلا على فتات . ولقد استسلمت لذلك . ولكن إذا كان لا بد من منحٍ أقل من ذلك أيضاً ، فالأفضل أن نقطع صلتنا .

– إنني أفعل ما أستطيع .

– أنت لا تستطيعين أن تزعجي زوجك ولا ابنتيك ؛ أما تعذيبي ، فتستطيعينه .

– انني لا أريد أن تتعذب .

– كفى ، كفى . إن الأمر لديك سواء تماماً . لقد كنت أظنك مختلفة عن الآخرين ؛ ويكاد المرء يقول أحياناً إن لك قلباً . ولكن لا ، فما عسى القلب أن يجدي بالنسبة لامرأة تريد أن تنطلق ، امرأة حرة ناجحة في الحياة ؟

وظل يتكلم ويتكلم . حين يشعر جان – شارل بما يزعجه ، يلزم الصمت . أما لوسيان فيتكلم . طريقتان . وصحيح إني منذ الطفولة تعلمت أن أسيطر على قلبي . أهذا خير أم شر ؟ سؤال لا جدوى منه ، فالإنسان لا يصنع نفسه من جديد .

– إنك لا تشربين ولا تغضبين ، ولم أرك مرة واحدة تبكين ، إنك تخافين أن تضيعي نفسك : وأنا أسمي هذا رفض الحياة .

وأحست بالسهم يصيبها ، من غير أن تدري في أي مكان من نفسها :

– إنني لا أستطيع شيئاً . هكذا أنا .

فقبض على رسغها :

– هل تدركين انني منذ شهر وأنا أنتظر هذه الليالي . كنت أحلم بها طوال الليالي .

– لقد أخطأتُ إذن : كان علي أن أخبرك !

– لم تفعلي ذلك : فابقي إذن !

فتحلـّلت منه برفق :

– فكـّر في الأمر : فلو خالجت جان – شارل شكوك لأصبحت قصتنا مستحيلة .

– لأنك ، بالضرورة ستضحيّن بي ؟

– لا َنعُدْ الى هذا .

– لا . أنا أعلم جيداً انني خسرت .

وَعذُب من جديد وجه لوسيان فلم يكن في عينيه بعد إلا حزن كبير . وقـال :

– وإذن ، فإلى الغد .

– الى الغد ، ستكون لنا أمسية جميلة .

وقبلته ، فلم يبادلها قبلتها ؛ وكان ينظر اليها بهيئة متألمة .

ولم تكن تحسّ بالشفقة ؛ بل كانت تشعر على الأصح ، إذ هي تعود الى سيارتها ، بنوع من الحسد . لقد سبق لها أن تألمت ، في مدينة الهافر ، تلك الليلة التي صرّح فيها بأنه كان يفضل أن يتراجع على الفور : وكان ذلك في بدء علاقتهما ، وكانت تحقق في بيع قهوة « الموكسكي » ، وكان هو يصحبها . لم يكن يريد أن يكون تابعاً للزوج والأولاد ، وأن ينتظر ، وأن يستعطي . « سوف أفقده ! » وكانت قد أحست بتمزق يشبه في وضوحه جرحاً جسدياً. ومثل ذلك شعرت في الشتاء الماضي حين عادت من « شامونيكس » . كان لوسيان يقول : إن هذين الأسبوعين كانا تعذيباً ، وكان الأفضل إنهاء القضية . وهي التي ابتهلت ، فلم يتراجع هو ، وظلّ عشرة أيام من غير أن يكلمها . عشرة أيام جهنمية . ولم يكن في ذلك ما يشبه الآلام النبيلة التي يعبرون عنها في الموسيقى . بل كانت بالأحرى قذرة : الفم دبق ، ورغبات بالتقيؤ . ولكن ، كان ثمة على الأقل ما يُؤسف عليه . شيء في العالم كان يساوي وزنه من الشقاء . إنه ما يزال يعرف هذه الحمّى ، واليأس ، والأمل ، إنه أكبر حظاً مني .

تساءلت لورانس وهي تحدج زوجها الذي كان يبسط مربّى البرتقال على قطعة بسكوت : « لماذا جان – شارل وليس لوسيان ؟ » إنها تعرف جيداً أن لوسيان سينتهي بالانفصال عنها ، وسيحب امرأة غيرها . (لماذا أنا وليس امرأة أخرى ؟) وكانت تقرّ ذلك ، بل تتمناه في آخر المطاف . وإنما كانت تتساءل ببساطة : « لماذا جان – شارل ؟ » كانت الصغيرتان قد ذهبتا الى فوفرول عشية الأمس بصحبة مارت ، فكانت الشقة صامتة . ولكن الجيرن ينتهزون يوم الأحد ليدقوا على الحاجز بملء أذرعهم . وكان جان – شارل يضرب الطاولة بعنف : « كفى هذا ! إني ذاهب لأحطم رؤوسهم ! »

وكان منذ عودته يبدو كبير القابلية للغضب ، يوبخ الطفلتـــين ، ويتحامل على غويا ويكرّر مآخذه بلا انقطاع . إن فرني عبقري ، متنبىء ، ولكنـــه لا يتزعزع حتى أن دوفرين على حق في آخر الأمر في انه لا يحقق شيئاً أبداً . ولم يكن الملتزم يقبل مشروعه كلية : وقد كان عليه أن يفكر في مساعديه قبل أن يترك العملية تسقط . فتلك ثروة تمرُّ من تحت أنفنا .

– سأحاول أن أدخل دار مونود .

– كنت تقول إنـكم كنتم تشكلون فريقاً عظيمـــاً ، وإنـكم كنتم تعملون بحماس كبير .

– إن المرء لا يتغذى بالحماس . وأنا أسوى أكثر ممـا أكسب لدى فرنيي . أما عند مونود فسأكسب الضعف على الأقل .

– لاحظ أننا نعيش هكذا عيشة جيدة .

– وسنعيش على نحو أفضل .

كان جان – شارل مزمعاً على ترك فرنيي الذي كان معه لطيفاً جداً (فما عسانا كنا نصبح عند ولادة كاترين ، لولا السلفات التي قدّمها لنـــا ؟) ولكنه كان يحسُّ أولاً الحاجة الى تصفيته بالكلام .

– أفـكار عظيمة هائلة يتحدث عنها الجميـع ، وتمتلىء بهـا الصحف ، ذلك جميل جداً . . .

لمـــاذا جان – شارل وليس لوسيان ، مـا دام الفراغ نفسه ينحفر أحياناً حين تكون مع هذا ، وتكون مع ذاك . غير أن بينها وبـــين جان – شارل الأولاد ، والمستقبل والبيت العائلي وصلة صلبة ؛ أما بجانب لوسيان فإنها حين لا تستشعر شيئاً بعد تلفي نفسها أمـــام أجنبي . ولكن لنفرض أنه هو الذي كانت قد تزوجته ؟ إنه ما كان ليكون أفضل ولا أسوأ . فلماذا هـــذا الرجل وليس ذاك ؟ إن الأمر اغريب . إننا نجد أنفسنا مرتبطين مدى الحياة ، لأنه هو الذي التقيناه حين كنا في التاسعة عشرة . هي ليست آسفـــة على أنه كان جان – شارل ، بل على العكس . إنه شديد الحيويـة ، ممتلىء بالأفـكار ،

ورأسه يفيض بالمشاريع ، وهو متحمّس لما يعمل ، لامع ، قريب الى قلوب الجميع ؛ وهو أمين وفيّ ، ذو جسم جميل، يحسن القيام بفعل الحب وغالباً ما يقوم به . إنه يعبد بيته وطفلتيه ولورانس . على نحو مختلف من لوسيان ، أقل رومنتيكية ولكنه صلب ومؤثر ؛ إنه بحاجة الى حضورها وإلى موافقتها ، وهو يكاد يُجن ، ما أن تبدو له حزينة أو حتى قلقة . الزوج المثالي . وهي سعيدة أن تكون قد تزوجته هو لا شخصاً آخر ؛ ولكن يدهشها مع ذلك أن يكون هذا على قدر ذلك من الأهمية ، وأن يكون اتفاقاً في الوقت نفسه ، من غير سبب خاص . (ولكن كل شيء كذلك) فهل نلتقي بقصص الأرواح الشقيقة إلا في الكتب ؟ وحتى الطبيب العجوز الذي انتحر لموت زوجته : إن هذا لا يثبت أنهما كانا مخلوقين أحدهما للآخر . إن أبي يقول : « يجب أن نحب حباً » . فهل أحب جان – شارل ؟ وهل أحببت لوسيان حباً ؟ إن لديها الإحساس بأن الأشخاص متقابلون تجاهها فهم لا يسكنون فيها ؛ ما عدا بنتيها، ولكن لا بد أن يكون ذلك عضوياً .

– لن يكون مهندساً معمارياً كبيراً من لا يحسن التأقلم والانسجام .

وقطع حديث جان – شارل رنينُ جرس ، فمدّ لوحاً خشبياً قسم الغرفة الى قسمين ، وأدخلت لورانس مونا الى أحد أركان المكتب .

– لطافة منك أن تأتي .

– لم يكن وارداً أن أتركك .

كانت مونا أنيقة ، ترتدي بنطالاً وكنزة سميكة ، وكانت صبيانية في مظهرها ، انثوية ببسمتها وحركة عنقها الجميلة . وكانت ترفض عموماً أن ترفع بُنصرها خارج ساعات العمل : إننا مستَغَلّون بما فيه الكفاية هكذا . ولكن كان ينبغي تسليم المشروع هذا المساء على أبعد تقدير ، وكانت تعلم أن التصميم الذي عملته لم يكن ناجزاً . ونظرت فيما حولها :

– إنك تسكنين بيتاً جميلاً !

وفكّرت ثم أضافت :

– طبعاً ، لا بد لمن كان مثلكما انتما الاثنين أن يشكّل زوجاً جميلا .

لم يكن في كلامها سخرية ولا عتاب : وإنما كانت تقارن . إنهـــا تكسب حياتها على مهل، ولكن يبدو – وهي لا تتحدث كثيراً عن نفسها – أنها تخرج من وسطٍ متواضع جداً وانها تحمل على عاتقها أسرة برمّتها .

وجلست قرب لورانس وبسطت رسومها على طاولة العمل :

– رسمت عدة تصاميم ، مع بعض الاختلاف.

ولم يكن يسيراً الإعلان عن طراز جديد من نتاج شديـد الانتشار كعصير الطماطم . وكانت لورانس قد اقترحت على مونا استغـــلال المفارقة « شمس – نضارة » . وكانت الصفحة المرسومة مرضيـة : شمس كبيرة في السماء بألوان فاقعة ، وقرية معلّقة ، وأشجار زيتون ؛ وكان في مقدمة الرسم علبـة النتاج وحبة طماطم . ولكن كان ينقص شيء ما : طعم الفاكهة . وقـــد تناقشتا طويلا ، وانتهتا الى أن من الواجب شقّ الفاكهة ووضع قطعة منها عارية .

وقالت لورانس :

– هنا الاختلاف الكبير : إن المرء ليرغب في عضّها الآن !

قالت مونا :

– نعم ، لقد فكرت انك ستكونين مسرورة . انظري اليها جميعاً ...

وكان بين الورقة والأخرى تغيّرات طفيفة في اللون والشكل .

– إن الاختيار صعب .

ودخل جان – شارل الغرفـــة ، فالتمعت أسنانه شديدة البياض فيما كان يشدُّ على يد مونا باندفاع :

– لقد حدّثتني عنـــك لورانس مطولاً ! ورأيت كثـيراً من رسومك . وصورتك « ماريبيل » تسحرني . إنك ذات موهبة غنية .

قالت مونا :

– يحاول المرء أن يحمي نفسه .

وسألت لورانس :

– أيّ هذه الرسوم يعطيك الرغبة في أكل رُبّ الطماطم ؟

– إنها متشابهة جداً ، أليس كذلك ؟ والحق أنها جميلة جداً : لوحات صغيرة حقيقية .

ووضع جان – شارل يده على كتف لورانس :

– أنا ذاهب أنظّف السيارة . هل تكونين مستعدة في الثانية عشرة والنصف ؟ ينبغي ألاّ نتأخر عن ذلك إذا أردنا أن نصل « فوفرول » ساعة الغداء . . .

– سأكون مستعدة .

وخرج وهو يطلق بسمة كبيرة .

وسألت مونا :

– أنتما ذاهبان الى الريف ؟

– نعم ، إن الماما تملك بيتاً هناك ، ونحن نذهب إليه كل يوم أحد تقريباً . إنها استراحة . . .

وكادت تقول آلياً : « لا بد منها » ، ولكنها استدركت نفسها . إنها تسمع صوت جيلبير و « استراحة لا بد منها » ونظرت الى وجه مونا ، وكانت منزعجة بغموض (لا انزعاج ، ولا تبكيت ضمير ، ولا تلمّظ شرس .

قالت مونا :

– هذا طريف . . .

– ماذا ؟

– طريف كم يشبه زوجك لوسيان .

– أنت تحلمين ! إن لوسيان وجان – شارل كالماء والنار .

– أما أنا فأراهما قطرتي ماء .

– لست أرى ذلك حقاً .

– إنهما مثالان للحركات الجميلة والأسنان البيضاء، يحسنان التحدث ويضعان « الأفتر – شايف » بعد أن يحلقا ذقنيهما .

– آه ! إذاً كنت تقصدين هذا .

– نعم أقصد هذا .

ثم قالت بحسم :

– وإذن ، فأي مشروع تفضلين ؟

وتفحصتها لورانس من جديـــد . إن لوسيان وجان – شارل يستعملان « الأفتر – شايف » ، حسناً . وصاحب مونا كيف تراه يكون ؟ إن بودها أن تدعوها الى الحديث ، ولكن مونا استعادت الهيئة المغلقـة التي تخيف لورانس . كيف تراها تقضي يوم الأحد ؟

– أعتقد أن هـذه الرسمة هي أفضلها . بسبب القرية : إنني أحب تدحرج البيوت . . .

قالت مونا :

– وأنا أيضاً ، إنني أفضلها .

وجمعت أوراقها :

– حسناً . إنني أنسحب .

– ألا تريدين أن تأخذي قـــدحاً ؟ من الخمر أم من الويسكي ؟ أو من عصير الطماطم ؟

وضحكتا .

– لا ، لست راغبة في شيء . ولكن أريني بيتك .

وانتقلت مونا من غرفة الى غرفة ، من غير أن تقول شيئاً . وكانت أحيـاناً تمسّ قماشة أثاث أو خشب طاولة . وفي زاوية الصالون الذي كان يغمره النور ، تداعت للسقوط على أريكة .

– إنني أفهم أن لا تفهموا شيئاً .

كانت مونا تبدو عادةً ودّية، ولكن يبدو عليها أحياناً أنها تحتقر لورانس.

ولم تكن لورانس تحب أن تُحتقر بصورة عامة ، ومن قِبَل مونا بصورة خاصة . ونهضت مونا ، وفيما كانت تزرّر سترتها ، ألقت حولها نظرة أخيرة لم تعرف لورانس معناها تماماً : وعلى أي حال لم تكن نظرة حسد .

وصحبتها لورانس حتى المصعد وعادت الى طاولتها . وأدرجت في ظرفٍ التصميم المختار والنصّ الذي وضعته : وأحسّت بانزعاج خفيف . صوت مونا المحتَقِر : أي تفوق تحسبه لنفسها ؟ إنها ليست شيوعية ، ولكن لا بد مع ذلك أنها تملك صوفية البروليتاريا ، كما يقول جان – شارل ؛ إن فيها شيئاً ما متعصّباً ، وليست هي المرة الأولى التي تلاحظ فيها لورانس ذلك . (كان بابا يقول : « إذا كان ثمة ما أحتقره ، فهو التعصُّب ») يا للأسف ! من أجل هذا يظل كل إنسان محجوزاً في دائرته الصغيرة . وقالت لورانس في أسف : لو أن كل إنسان يخفف ذلك بشيء من الإرادة الطيبة ، فلن يكون من الصعب التفاهم .

فكرت لورانس : إن من المزعج ألا أتذكر أبداً أحلامي . أما جان – شارل فلديه كل صباح أحلام يرويها ، أحلام واضحة ، غريبة بعض الشيء كتلك التي يعرضونها في السينما أو يروونها في الكتب . أما أنا ، فلا شيء . إن كل ما يحدث لي خلال هذه الكثافات الليلية هو حياة حقيقية تعنيني وتفلت مني . لو أنني كنت أعرفها ، لربما ساعدتني (في أي شيء ؟) إنها على أي حال تعرف لماذا تستيقظ في الصباح مبلبلة : دومينيك. دومينيك التي شقّت دربها في الحياة بضربات من فأس، ساحقةً ومُبعدة كل ما كان يُزعجها، وعاجزة فجأة متخبّطة في صخب وغضب . لقد رأت جيلبير « على صعيد الصداقة » ، ولم يقل لها اسم المرأة الأخرى . وقد سألتني بلهجة مرتابة :

– أهي موجودة حقاً ؟

– ولماذا تراه يريد أن يكذب عليك ؟

– إنه معقد الى حد بعيد !

وسألت جان – شارل :

– لو كنت مكاني ، أكنت تقول لها الحقيقة ؟

– لا بالتأكيد . إن من الأفضل ألا يتدخل الإنسان بقصص الآخرين .

وإذن ، فإن دومينيك تحتفظ بأمل غامض . أمل مترنّح . لقد ظلت يوم الأحد في فوفرول منعزلة في غرفتها بحجة أنها تعاني صداعاً ، محطمة بغياب جيلبير ، مفكرة بأنه « لن يأتي بعد أبداً . » وعلى التلفون – إنها تتلفن لي كل يوم – تصفه لي بملامح كريهة جداً حتى ليأخذني العجب كيف استطاعت أصلاً أن تحبه : إنه متكبر ، نرجسي ، سادي ، أناني بشكل متوحش ، يضحي بالجميع من أجل راحته وأهوائه . وأحياناً أخرى تمتدح لي ذكاءه وقوة إرادته وبريق انتصاراته وتؤكد : « سوف يعود لي . » وتتردد في اختيار الطريقة التي ينبغي أن تتبعها : الرقة أم العنف ؟ ما الذي ستفعله قريباً يوم يعترف لها جيلبير بكل شيء ! أتنتحر أو تقتل ؟ إنني لا أستطيع أن أتصور شيئاً . وأنا لم أعرف دومينيك إلا منتصرة .

كانت لورانس تنظر في الكتب التي نصحها جان – شارل بقراءتها ، (كان يضحك : « آه ! لقد عزمت أخيراً ؟ هذا ما يسرني حقاً . ستدركين بأننا ، على أي حال ، نعيش في عصر عجيب عظيم » . وكان يبدو شاباً نضراً حين كانت تأخذه سوْرة من سوْرات الحماسة هذه) وتصفحتها ، ونظرت في خواتيمها ؛ إن هذه الخواتيم تقول الشيء نفسه الذي يقوله جان – شارل وجيلبير : كل شيء يجري خيراً من السابق ، وكل شيء سيجري أفضل فيما بعد . ولقد انطلقت بعض البلدان انطلاقاً سيئاً ، ولا سيما افريقيا السوداء ؛ وهذا النمو العددي في الصين وفي آسيا كلها يثير القلق ، ومع ذلك ، فبفضل البروتينيات المركبة ، ومنع الحمل ، والتسيير الآلي ، والطاقة النووية ، يمكن التأميل بأن حضارة الرخاء والفرص المريحة ستقوم حوالي ١٩٩٠ . ولن تشكل الأرض بعد إلا عالماً واحداً ربما تحدّث – بفضل الترجمات الآلية – لغة عالمية ، سيأكل الناس حتى الشبع ، ولن يخصصوا للعمل إلا وقتاً ضئيلاً ؛ ولن يعرفوا

بعد الألم ولا المرض . ستكون كاترين ما تزال شابة عام ١٩٩٠ . بيد أنها تود لو تكون مطمئنة اليوم على ما يجري حولها . فلا بد من كتب أخرى تقدم لي وجهات نظر أخرى . ما هي ؟ إن بروست لا يستطيع أن يساعدني . ولا فيتزجرالد . لقد تسمرت أمس أمام واجهة مكتبة كبيرة . « الجمهور والقوة » « باندونغ »، « باتولوجية المشاريع» « المرأة وعلم النفس التحليلي » ، « أميركا والأميركات » ، « من أجل نظرية عسكرية فرنسية » ، « طبقة عمالية جديدة » ، « مغامرة الفضاء » ، « المنطق والبنية » ، « ايران » ... بأيها أبدأ ؟ ولم أدخل المكتبة .

هل تطرح أسئلة ؟ ولكن على من ؟ على مونا ؟ إنها لا تحب الثرثرة . انها تقوم بأكبر عمل ممكن في أقل وقت ممكن . وأنا أعرف ما الذي ستقوله إذا سألتها . إنها ستصف الوضع العمالي الذي ليس هو ما ينبغي أن يكون ، والجميع هناك متفقون على ذلك ، بالرغم من أنهم بفضل المخصصات العائلية يملكون جميعهم تقريباً غسّالة وجهاز تلفزيون وحق سيارة . صحيح أن المساكن غير كافية ، ولكن الوضع يتغير : فيكفي أن نرى هذه الأبنية الجديدة وهذه الورشات والرافعات الصفر والحمر في سماء باريس . أما القضايا الاجتماعية فالجميع يهتمّون بها اليوم . والحق أن المشكلة الوحيدة هي في الحقيقة : هل يُفعل أم لا كل ما يمكن فعله للحصول على المزيد من الراحة والعدل في الأرض ؟ إن مونا تعتقد أن لا . أما جان ـ شارل فيقول : « ليس هناك من يفعل « كل » ما يمكن فعله : ولكن ما يفعل الآن هائل . » وهو يعتقد أن مونا وأمثالها يخطئون بدافع من نفاد الصبر ؛ وشأنهم في ذلك شأن لويز حين يُدهشها ان لا يكون الناس قد هبطوا الى القمر بعد . وقد قال لي أمس : « إن الاصطدامات البشرية التي تتأتى من التجمّعات ومن الآلية تدعو أحياناً الى الأسف . ولكن من ذا الذي يريد أن يوقف التقدّم ؟ »

وتناولت لورانس من ملف المجلات العددين الأخيرين من « الأكسبرس » و « كانديد ». كانت المجلات اليومية والاسبوعية إجمالاً تمطي الحق لجان ـ

شارل . وهي تفتحها الآن بغير ما خوف . لا ، لا يحدث بعـــد ما هو مروع – إلا الفيتنام – ولكن ليس في فرنسا من يقرّ الاميركيين . وكانت مسرورة أنها هزمت هذا النوع من الخوف الذي كان يحكم عليهـا بالجهل (أكثر من نقص الوقت ، فإن الوقت يمكن ايجاده) كان يكفي في الحقيقة أن نأخذ عن الأشياء وجهة نظر موضوعية . ولكن الصعوبة هي عدم إمكان نقل وجهة النظر هـذه الى طفـــلة . وفي تلك اللحظة كانت كاترين تبدو هادئة . أما إذا اضطربت من جديد ، فلن استطيع أن أحدّثها أفضل من ذي قبل ...

« أزمة بين الجزائر وفرنسا » . وقرأت لورانس نصف المقـال حين طرق الباب طرقتين جذلتين . انها مارت . وكانت لورانس قد طلبت منهـــا عشر مرات أن لا تأتي على غـــير موعد . ولكنهـــا تستجيب لدوافع خارقة : لقد أصبحت متسلطة منذ بدأت السماء تلهمها .

– هل أزعجك ؟

– قليلاً . ولكنك ما دمت هنا ، فابقي خمس دقائق .

– هل تعملين ؟

– نعم .

– إنك تعملين أكثر مما ينبغي .

ونظرت مارت الى اختها بهيئة متبصرة :

– إلا أن تكون لديك هموم . لم تكوني يوم الأحد مرحة .

– بلى .

– كفى ، كفى ! إن اختك الصغيرة تعرفك جيداً .

– أنت مخطئة .

لم تكن لدى لورانس أية رغبة في أن تكاشف مارت . ثم أن الكلمات ، لو فعلت ، ستكون على الفور أضخم مما ينبغي . فلو قالت : انني قلقـــة على أمي ، إن كاترين تطرح عليّ أسئلة ، إن جـــان – شارل ذو مزاج كلبي ، إن لي علاقة تثقل علي ، فبالإمكان الظن بأن في رأسها كتلة كثيفـــة من المشاغل التي

تستفرقها كلياً . الحقيقة أن الأمر كان هنا من غير أن يكون هناك ، إنه في لون النهار . وهي تفكر فيه طوال الوقت ، وهي لا تفكر فيه أبداً .

قالت مارت :

– اسمعي ، إن هناك مسألة أريد أن أحدّثك فيها . كنت أريد أن أفعل ذلك يوم الأحد . ولكنك تخيفينني .

– أخيفك ؟

– نعم . تصوّري ذلك . وأنا أعرف انني سأثير غيظك . ولكن هذا عندي سواء . إن كاترين ستبلغ الحادية عشرة عمّا قريب : وأعتقد أن عليك أن ترسليها الى التعليم الديني والقيام بالتناول .

– أية فكرة هذه ! لسنا مؤمنين لا جان – شارل ولا أنا .

– ولكنك مع ذلك قد عمّدتِها ؟

– بسبب إلحاح أمّ جان – شارل . أما وأنها قد ماتت الآن ...

– انك تتحملين مسؤولية خطيرة بحرمانك ابنتك من كل تعليم ديني . إننا نعيش في حضارة مسيحية . ومعظم الأطفال يقومون بالتناول . وسنأخذ عليك فيما بعد أنك قرّرت لها ، من غير أن تتركي لها حرية الاختيار .

– هذا رائع ! أن أتركها حرة هي أن أرسلها الى التعليم الديني !..

– نعم . ما دام هذا في فرنسا هو اليوم الموقف الطبيعي . انك تجعلين منها استثناء ، شخصاً منفياً .

– لا تلحّي في ذلك .

– بل اني ألحّ . انني أجد كاترين حزينة ، قلقة . وهي تفكر أفكاراً غريبة . انني لم أحاول قط التأثير عليها ، ولكني أصغي اليها . إن من القسوة الشديدة بالنسبة لطفلة أن تواجه الموت والشر إذا لم تكن مؤمنة بالرب . فإذا آمنت ساعدها ذلك .

– ما هي الأفكار التي حدثتك عنها !

– لا أذكر على الضبط .

وحدجت مارت اختها :

– ألم تلاحظي شيئاً ؟

– بلى ، بكل تأكيد . إن كاترين تطرح أسئلة كثيرة . وأنا لا أريـــد أن أجيب عليها بالأكاذيب .

– إنك على جانب من التعالي والتكبر إذ تقررين انها أكاذيب .

– ولستِ دوني أنت التي تقررين انها حقائق .

ولمست لورانس ذراع أختها وقالت :

– لا نتخاصم . إنهـــا ابنتي ، وأنا أربّيها كما أريـــد . ويبقى لك أنت أن تصلـّي من أجلها .

– لن أقصّر في ذلك .

ما أعند مارت ! صحيح أنـــه ليس من السهل تربية الأولاد تربية لادينية ، في هذا العالم الذي يكتسحه الدين . ولكن كاترين لا تجد ما يغريها من هــــذا الجانب . أما لويز فإن بريق الاحتفالات يجتذبها . لا شك في أنهـــا ستطلب الذهاب في عيد الميلاد لرؤية المزاود ... لقد روت لهما لورانس ، منذ طفولتهما الأولى، التوراة والانجيل وفي الوقت نفسه قصص الميتولوجيا اليونانيـــة اللاتينية وحياة بوذا . وأوضحت لهـــا أن تلك هي أساطير جميلة حوّل أحداث وبشر حقيقيين . وقد ساعدها أبوها في عرض هذه القصص . كما روى لهما جان – شارل بداءات الكون والكواكب المذنـّبة ومادة الحياة : فوجدتا هذه الحكاية رائعة . وقد تحمست لويز حمـــاساً شديداً لكتاب في علم الفلك بسيط جداً ، يحتوي صوراً جميلة . جهد طويل ، معد ، ذكي ، وفرتـــه مارت على نفسها إذ عهدت بأولادها الى رهبان ، وهي مستعدة أن تهدمه بنفقة واحدة ، في ثقـــة بالنفس لا تُصدق .

وحين رافقت لورانس أختها بعد ذلك بقليل الى الباب سألتها قائلة :

– ألا تذكرين حقاً ما هي الأفكار التي لفتت انتباهك لدى كاترين ؟

فقالت مارت بلهجة متأملة :

– لا . إنه بالأحرى نوع من الحدس جاءني فيما وراء الكلمات .

وأغلقت لورانس الباب خلفها بانزعاج . لقد كانت كاترين منـــذ حين ، إذ عادت من الليسيه ، تبدو مرحة . وهي تنتظر بريجيت لتقوم معها بالترجمـــة اللاتينية . فعمّ تراهما ستتحدثان ؟ عم تتحدثان ؟ حين تسأل لورانس كاترين ، فإنها تتجنب الإجابة . أنا لا أعتقد أنها تحترس مني : الأصح أنــ ما يعوزنا هو اللغة المشتركة . لقد تركتها حرة جـــداً فيما كنت أعاملهـا كطفلة ، ولم أكن أحاول أن أتحدث معها ؛ ولهذا أعتقد أن الكلام يخيفها ، على الأقل في حضوري. إنني لا أوفق الى إيجاد وسيلة الاتصال . « أزمة بين الجزائر وفرنسا » أود رغم كل شيء أن أنهي قراءة هذا الموضوع .

– صباح الخير يا سيدتي .

وقدّمت بريجيت الى لورانس باقة صغيرة من الأقحوان .

– شكراً ، إنها جميلة جداً .

– أترين : لقد رفوت الفتق في تنورتي .

– آه نعم ؛ إنها هكذا أفضل جداً .

حين التقت بها في فناء « متحف الإنسان » كان الدبوس ما يزال مزروعاً في تنورة بريجيت . ولم تقـــل لورانس شيئاً ، ولكن الصغيرة فاجأت نظرهـــا فاحمرت أذناها .

– أوه ! لقد نسيت مرة أخرى ...

– حاولي أن تفكري في ذلك .

– أعدك أن أرفوها هذا المساء .

وطافت لورانس بهن المتحف ؛ وكانت لويز تعـاني بعض الضجر ؛ أمـــا الأخريان فكانتا تركضان في كل مكان وتعبران عن دهشتهما بصرخات صغيرة .

وفي المساء ، قالت بريجيت لكاترين :

– أنت محظوظة أن تكون لك ماما لطيفة الى هذا الحد !

ولم تكن ثمة حاجة لتكون لورانس ساحرة حتى تستشف خلف حركاتهـا

الشبيهة بحركات امرأة صغيرة قلق الفتاة اليتيمة .
– هل ستعملان في ترجمة نصّ لاتيني ؟
– نعم .
– ثم تثرثران كامرأتين فضوليتين .
وتردّدت لورانس :
– اسمعي يا بريجيت : لا تروي لكاترين أشياء حزينة .
فاصطبغ الوجه كله وحتى العنق بالاحمرار .
– ماذا قلت وكان ينبغي ألا أقوله ؟
– لا شيء خاصاً .
وابتسمت لورانس على نحو مطمئن :
– كل ما هنالك ان كاترين ما تزال صغيرة جداً. إنها غالباً ما تبكي في الليل، وأشياء كثيرة تخيفها .
– آه ! فهمت !
وبدا على بريجيت أنها أكثر ارتباطاً منها انزعاجاً .
– ولكن لنفرض أنها طرحت عليّ أسئلة ، فهل أقول لها إنك تمنعينني من الإجابة ؟
وكانت لورانس هي التي اضطربت الآن: إنني أحسّني مخطئة بأن أخطّئها ، بينما في الحقيقة ...
– أيّ نوع من الأسئلة !
– لا أدري . حول ما شاهدته في التلفزيون .
آه ! نعم ؛ هناك هذا أيضاً : التلفزيون . إن جان – شارل يحلم دائماً بما يستطيع أن يكونه ، ولكنه يرثي لما هو حالياً ؛ وهو لا يشاهد إلا الأخبار المصوّرة وبرنامج « خمسة أعمدة في الصفحة الأولى » الذي تشاهده لورانس كذلك ، بين الحين والحين ، وتعرض فيه أحياناً مشاهد غير محتملة ؛ والصور بالنسبة لطفلة هي أشدّ تأثيراً من الكلمات .

– ما الذي رأيته في التلفزيون في هذه الأيام الأخيرة ؟

– اوه ! أشياء كثيرة .

– أشياء حزينة ؟

فنظرت بريجيت الى لورانس في عينيها :

– هناك أشياء كثيرة أجدها حزينة ، الا ترين أنت ذلك ؟

– بلى ، بكل تأكيد .

ماذا عرضوا في هذه الأيام الأخيرة ؟ كان عليّ ان أنظر . الجاعة في الهند ؟ التقتيل في الفيتنام ؟ مشادّات عنصرية في الولايات المتحدة الأميركية ؟

واستطردت لورانس :

– ولكنني لم أشاهد البرامج الأخيرة . ما الذي استلفت نظرك ؟

فقالت بريجيت في اندفاع :

– الفتيات اللواتي يضمن قِطع الجـَزَر على شِبَاك صيد السمك .

– كيف ذلك ؟

– نعم . لقد كنّ يروين أنهنّ يقضين النهار كله وهنّ يضمن قطع الجزر على شباك صيد السمك . وهنّ لسن أكبر سناً مني . انني أفضّل الموت على أن أعيش هكذا .

– لا يبدو ان الأمر مشابه تماماً بالنسبة اليهن .

– لماذا ؟

– لقد رُبّين على نحوٍ آخر .

قالت بريجيت :

– لم يكن يبدو عليهن انهن مسرورات .

مِهَنٌ بليدة لن تلبث أن تختفي مع الأعمال الآلية ؛ وبالانتظار ، طبعاً ... يطول الصمت .

قالت لورانس :

– حسناً . إذهبا لإنجاز الترجمة اللاتينية . وشكراً للزهور .

فلم تتحرك بريجيت .

– يجب عليّ ألاّ أحدّث كاترين بهذا ؟

– بأيّ شيء ؟

– هؤلاء الفتيات الصغيرات ؟

قالت لورانس :

– ولكن بلى . وانما حين يبدو لك شيءٌ ما فظيعاً حقّاً ، فمن الأفضل أن تحتفظي به لنفسك . انني أخاف أن تعاني كاترين من الكوابيس .

وكانت بريجيت تلوي نطاقها ؛ كانت هيئة الارتباك والحيرة بادية عليها ، هي البسيطة الصريحة عادة . وفكرت لورانس : « لقد أسأت التصرّف معها » ؛ ولم تكن راضية عن نفسها ؛ ولكن كيف كان ينبغي لها أن تتأتّى للأمر ؟

وانتهت إلى القول في شيء من الارتباك :

– على أي حال ، أترك لك الأمر . انتبهي قليلاً ، هذا كل شيء .

أتراني أصبحت ضعيفة الإحساس ، أم إن بريجيت هي القابلة للجَرْح بصورة خاصّة ؟

هكذا تساءلت لورانس حين انغلق البـــاب . « طوال النهار ، قِطعٌ من الجزر » لا شك في أن هؤلاء الفتيات انما يمتهنّ مثل هذه المهنة لأنهنّ غير قادرات على امتهان عمل أكثر أهمية . ولكن ذلك لا يجعل الأشياء أطرف في نظرهنّ . هي ذي ايضاً بعض هذه « الاصطدامات البشرية » التي يؤسف لها . أأكون على صواب أم على خطأ ألاّ أهتمّ بها إلا قليلاً ؟

وأنهت لورانس قراءة المقال : إنها لا تحبّ ان يظلّ ما تبدأ بقراءته غـــير منتهٍ . ثم استغرقت في عملها : وضع سناريو لنتاج شامبوان . وأخذت تدخّن سيكارة إثر سيكارة : حق الأشياء البليدة تصبح جديرة بالاهتمام اذا حاولنــا أن نتقن صنعها . وخلت علبة السكاير . وأصبح الوقت متأخراً . وجاءت ضجّة من داخل البيت . ألا تزال بريجيت هنا ؟ ولويز ، مـــاذا تفعل ؟ وعبرت لورانس الممرّ . كانت لويز تبكي في غرفتها ، وكان في صوت كاترين دموع .

وابتهلت تقول :

– لا تبكي . أعدك ألا" أحب" بريجيت أكثر منك .

كفى ! لماذا ينبغي دائماً أن تباع بهجة البعض بدموع الآخرين ؟

– لولو ، أنت التي احبتك أكثر . أما بريجيت ، فأهتم" بالحديث معها ؛ ولكنك أنتِ أختي الصغيرة .

– صحيح ؟ صحيح حقاً ؟

وابتعدت لورانس بغير ما ضجة . يا لهموم الطفولة التي تمتزج فيها القبلات بالدموع ! ليس ثمة من أهمية لأن تدرس كاترين أقل" من المعتاد ؛ إن حساسيتها تنضج ؛ إنها تتعلم أشياء لا تُلقن في الصف" : التعاطف ، التعزية ، الأخذ والعطاء ، إدراك فروقٍ على الوجوه وفي الصوت كانت تفوتها .

وأحست" لورانس في قلبها ، لمدة لحظة ، حرارة ، حرارة ثمينة ، نادرة . ماذا ينبغي أن تفعل حتى لا تُحرم كاترين ، فيما بعد ، من هذه الحرارة أبداً ؟

الفصل الثالث

انتهزت لورانس فرصة غياب الصغيرتين لترّتب غرفتيهما . ربّما كانت بريجيت لم تتحدث عن البرنامج التلفزيوني الذي لفت انتباههما ؛ ومهما يكن من أمر ، فان كاترين لم تنفعل لذلك قط ؛ لقد كانت جذلة هذا الصباح اذ أخذت مكانها مع لويز في سيارة جدّهما : وكان يأخذهما في عطلة نهاية الاسبوع لمشاهدة قصور اللوار . ولورانس هي التي تركت نفسها — بشكل أخرق في نهاية المطاف — تنزعج من هذه الحكاية . وقد بدت لها فكرة مصيبة باهتة ويومية أشقّ على الهضم من الكوارث الكبيرة التي هي استثنائية على أيّ حال . وكانت تريد أن تعرف كيف كان الآخرون يتدّبرون الأمر .

وقد سألت لوسيان في ذلك يوم الاثنين ، وهي تتناول الطعام معه . (مزعجةٌ ، هذه اللقاءات . إنه عاتبٌ عليّ ، ولكنه متشبّث . لقد قالت دومينيك ، منذ عشرة أعوام : « الرجال ؟ إنني أنفر منهم ! » فان نأتي متأخرات، أو نلغي الموعد ، أو نعطي من أنفسنا أقلّ فأقلّ : إن الأمر ينتهي بهم الى الإشمئزاز من أنفسهم . أما انا ، فلا أعرف أن أتصرّف على هذا النحو . وينبغي أن أعزم ذات يوم على القطيعة الدامية) إنه لا يهتمّ أبداً بهذه المشكلات . ولكنه مع ذلك أجابني . صحيح انه بشعٌ أن يُحكم على فتاة في السادسة عشرة بعمل بليد ، وأن يكون المستقبل أمامها مسدوداً ؛ ولكن الحقيقة أن الحياة هي دائمة بشعة ، إن لم يكن لهذا السبب ، فلذاك . أنا أملك بعض المال ، وأربح منه الكثير ، فماذا يجديني ذلك ما دمت لا تحبينني؟ من هو السعيد ؟ هل تعرفين أشخاصاً سعداء ؟ إنك تتفادين من المزعجات حين تغلقين قلبك بالقفل والمفتاح : وأنا لا أسمّي هذا سعادة . زوجك ؟ ربّما ؛ ولكن إذا عرف الحقيقة فان هذا

لن يسرّه . إن حياة كل فرد تساوي حياة الآخرين بفرقٍ بسيط . كنت تقولين أنت نفسك : إن مما يثير الرثاء أن نرى دوافع النـــاس وخيالاتهم المسكينة ، وسراباتهم . إنهم لا يملكون شيئاً صلبــاً يضمونه تحت أسنانهم ، شيئاً يحرصون عليه حقاً ؛ ولو كانوا مسرورين لما استهلكوا هذا القدر من المهدّئات . هنـــاك شقاء الفقراء ، ولكن هنـــاك أيضاً شقاء الأغنيـــاء : وينبغي أن تقرأي فيتزجرالد ، فهو يتحدث في ذلك حديثاً طريفـــاً جيداً . وفكرت لورانس ، أجل ، إن في ذلك جانباً من الحقّ . إن جان – شارل غالباً ما يكون مرحاً ، ولكنه ليس سعيداً حقاً : فهو سريع الانزعاج أكثر مما ينبغي بسبب هذا الأمر أو ذاك . وأمّي ، أيّ جحيم ينتظرها ، بالرغم من شقـّتها الجميلة وأناقتها وبيتها الريفيّ ! وأنا ؟ لست أدري . ينقصني شيء يملكــه الآخرون ... إلاّ أن ... إلاّ أن يكونوا قد فقدوه . ولعلّ جيزيل دوفرين حين تتنهّد : « هذا رائع »، وحين تبسط مارت بسمة مشعّة على فمها الضخم لا تُحسّان بأكثر ممـــا أحسّ أنا . وبابا وحده ...

وقد أخذته لورانس لهـا وحدها ، يوم الأربعاء المـــاضي ، بعد أن نامت الصغيرتان : وكان جان – شارل يتناول العشاء في الخارج مع مهندسين شبّان (« ليس بعدُ من خطّ عمودي ، ولا خطّ أفقي ، إن الهندسة المعمارية ستكون مائلة أو لا تكون » . كان يجد هذا مضحكاً بعض الشيء ، ولكنّ لهم وجهات نظر هامّة ، هذا ما رواه لها حين عاد إلى المنزل .) ومرة أخرى ، حاولت أن ترتّب ما أجابها به، في أوقات مختلفة . إن الانسان في جميع البلدان، اشتراكية كانت أم رأسمالية ، مسحوق بالتكنيك ، أسيرٌ لعمله، مقيّد ، متبلّد . والشرّ كلّه يأتي من أنه أكثرَ حاجاتِه بينما كان عليه أن يضبطها ؛ وبدلاً من أن يسعى إلى رخاء ليس له من وجود ، وربما لن يوجد أبداً ، كان ينبغي له أن يكتفي بحدّ أدنى حيويّ ، كما لا تزال تفعل بعض الطوائف الفقيرة جداً – في سردينيا واليونان مثلاً – التي لم ينفـُذ التكنيك فيها ولم يفسدها المال . هناك يعرف الناس سعادة زاهدة لأن بعض القيم محا َفظٌ عليها ، قيمٌ إنسانية حقاً تتعلق بالكرامة

والأخوة والكرم وتمنح الحياة مذاقاً فريداً . وما دمنا ماضين في خلق حاجات جديدة ، فاننا نضاعف ألوان الحرمان . ومتى بدأ السقوط ؟ يوم فضّلنا العلم على الحكمة ، والنفع على الجمال . بدأ مع النهضة والعقلانية والرأسمالية والعلمية . حسناً ، أما الآن وقد بلغنا هذا ، فما العمل ؟ ينبغي أن نحاول بعث الحكمة فينا ، وحولنا ، وبعث حسّ الجمال . وثورة أخلاقية فقط ، وليس سياسية ولا اجتماعية ولا تكنيكية ، هي التي ستردّ الانسان إلى حقيقته المفقودة . ويمكننا على الأقل أن نقوم بهذا التغيير لحساب تلك الثورة : وإذ ذاك يصبح الفرح في متناولنا ، بالرغم من عالم العبث هذا ومن الفوضى التي تحاصرنا .

والحق أن ما يقوله لوسيان وما يقوله أبي ممتزج . إن الجميع تعساء ، والجميع يستطيعون أن يجدوا السعادة : معادلتان . هل أستطيع أن أشرح لكاترين : إن الناس ليسوا تعساء الى هذا الحدّ ما داموا متمسّكين بالحياة ؟ وتردّدت لورانس : إن هذا يعني أن الأشقياء ليسوا أشقياء . فهل هذا صحيح ؟ صوت دومينيك المقطّع بالبكاء والصراخ ؛ إنها تستفظع حياتها ، ولكنها لا تريد إطلاقاً أن تموت : هذا هو الشقاء . ثم إن هناك هذه الفجوة ، هذا الفراغ الذي يثلّج الدم ، والذي هو أسوأ من الموت بالرغم من انه مفضّل على الموت ما دام المرء لا ينتحر : لقد عرفتُ ذلك منذ خمسة أعوام وما زلت أحتفظ منه بذكرى مرعبة . وهناك واقعة أن ثمة أشخاصاً ينتحرون — لقد طلب موزاً ومنشفة — لأنّ هناك شيئاً أسوأ من الموت. هذا ما يجعل البرد يسري فيعظامنا حين نقرأ قصة انتحارٍ ما : ليست هي الجثة الضعيفة المعلّقة بحديد النافذة ، بل ما حدث في هذا القلب قبل ذلك تماماً .

وقالت لورانس في نفسها ، لا ، إن ما أجابني به أبي لا يصلح إلاّ له ؛ لقد احتمل دائماً كل شيء في صلابة : أوجاعه في المجرى البولي ، وعمليته ، وسنواته الأربع في الأسر ، وهجر الماما إيّاه، بالرغم من انه عانى من ذلك حزناً شديداً. وهو وحده القادر على أن يجد الفرحفي هذه الحياة المنعزلة ، القاسية التي اختارها لنفسه . أودّ لو أعرف سرّه . ولعلّني لو كنت أراه أكثر من ذلك ، وأطول

من ذلك ...

وسألها جان – شارل :

– هل أنت مستعدّة ؟

وهبطا إلى المرأب ، وفتح جان – شارل باب السيارة ، فقالت لورانس :

– دعني أقود . إن أعصابك ثائرة أكثر مما ينبغي .

فابتسم بمزاج طيّب :

– كما تريدين .

وجلس في السيارة إلى جانبها . لا بدّ أن محادثته مع فرني كانت مزعجة ؛ إنه لا يتكلّم عنها ، ولكنه كان يبدو شرساً ، وكان يقود قيادة خطرة ، بسرعة بالغة ، بضربات فرملةٍ قاسية وغاضبة . وقد كادت الصحف أمس الأول أن تنشر نبأ اصطدام جديد بين سائقي السيارات حدث فيه تحطّم رأس !

وفي دار بوبلانف ، تحدّث لوسيان منذ أيام حديثاً لامعاً عن بسيكولوجية الرجل وهو يقود : كبت ، تعويض ، قوة وعزلة . (إنه هو نفسه يقود جيداً جداً ولكن بسرعة مجنونة) فقاطعته مونا :

– أنا أريد أن أوضّح لماذا يصبح جميع هؤلاء السادة المهذّبين وحوشاً حين يجلسون وراء المقود .

– لماذا ؟

– لأنهم وحوش .

فهزّ لوسيان كتفيه . ما الذي كانت تقصده تماماً ؟

وقال جان – شارل بصوت مرح :

– حين أعود يوم الاثنين ، سأتعاقد مع « مونود » .

– هل أنت مسرور ؟

– جداً . سأقضي يوم الأحد في النوم وفي لعب الطابة ، ويوم الاثنين انطلق بقدم ثابتة .

وخرجت السيارة من النـَفـَق ، فضاعفت لورانس السرعـــة ، وعيناهـا

مستمرّتان في المرآة العاكسة . وكان عليهـا أن تتجاوز ، ثم تتراجع ، وتتجاوز وتتجاوز ، وتتراجع .

مساء السبت : إن باريس تفرغ . إنها تحب أن تسوق السيارة ، وليس لدى جان – شارل نقيصة كثيرٍ من الأزواج : فمهما كان رأيـه ، فهو لا يسمح لنفسه بأية ملاحظة . وتبتسم لورانس . ليس لديه كثير من النقائص ، إجمالاً ، وحين تجري بهـما السيارة ، وهما جنباً إلى جنب ، تتوهّم دائماً – بالرغم من أنهـا لا تنخدع – بأنهما « مخلوقان أحدهما للآخر » . وفكـّرت في تصميم : « سأتحدّث إلى لوسيان هذا الاسبوع » وكان قد قال لها مرة أخرى أمس ، في عتـاب : « أنت لا تحبّين أحداً ! » هل هـذا صحيح ؟ لا . إنني أحبّه كثيراً . صحيح انني سأقطع صلتي به ، ولكنني أحبّه كثيراً . أحبُّ الناس كلّهم كثيراً ، مـا عدا جيلبير .

وتركت الاوتوستراد ، ودلفت الى طريق منعزلة صغيرة . سيكون جيلبير في فوفرول . لقد تلفتت دومينيك بلهجة منتصرة : « سيكون جيلبير هنا . » لماذا تراه قادم ؟ ألعلّه يلعب ورقة الصداقة : إن ذلك لن يجديه نفعاً يوم تنفجر الحقيقة . أم هو قـادم يقول كلّ شيء ؟ وتُرطّب يدا لورانس المقود . إن دومينيك لا تصمد منذ شهر إلاّ لأنها تحتفظ ببعض الأمل .

– انني أتساءل لماذا قبل جيلبير أن يأتي .

– ربما يكون قد عدل عن مشروعه في الزواج .

– أشكُّ في ذلك .

كان الجو رطباً رمادياً ، وكانت الأزهار ميتة ؛ ولكن النوافذ كانت تلتمع في الليل ، ونارٌ خشبية تشعّ في قاعة الجلوس ؛ كان المدعوون قليلين ، ولكنهم مختارون : دوفرين وزوجته ، جيلبير ، تيريون وزوجته ؛ كانت لورانس قـد عرفته وهي صغيرة ، وكان زميلاً لأبيها ، وقد أصبح أشهر محامٍ في فرنسا . ولم تكن مارت وهوبـير مدعوين . انهـما لا يظهران بمظهرٍ جيّد ، ابتسامات ، مصافحات . ويقبّل جيلبير اليد التي كانت لورانس قد رفضت مصافحته بهـا ،

منذ شهر . وكانت نظرته مليئة بالمعاني حين سأل :

– أتريدين أن تشربي شيئاً ؟

قالت دومينيك :

– عصّا قليل .

وأمسكت لورانس من كتفها وهي تقول :

– إصعدي أوّلاً فرّتي شعرك ، فقد فسدت تسريحتك .

وفي الغرفة ، ابتسمت لها :

– ليست تسريحتك فاسدة على الاطلاق . وانما كنت اريد التحدث اليك .

– ما الذي تشكينه ؟

– أيّ تشاؤم !

والتمعت عينا دومينيك . وكانت آنق قليلاً مما ينبغي بقميصها الذي يعود طرازه الى اول القرن وتنورتها الطويـلة (مَنْ تراها تقلّد ؟) وقالت بصوت مستثار :

– تصوّري اني اكتشفت السرّ !

– حقـّاً ؟

لماذا تبدو دومينيك بهذه الهيئة الخبيثة ، إن كانت تعرف ؟

– استعدّي للمفاجأة ...

وانتظرت قليلاً :

– لقد عاد جيلبير الى غرامياته القديمة : لوسيل دوسان – شامون .

– ما الذي يجعلك تظـنّين ذلك؟

– آه ، لقد أخبروني . إنه طوال الوقت محشور عندها . إنه يقضي عطـلة نهاية الاسبوع في « القصر » . هذا طريف ، أليس كذلك ؟ بعد كل ما قاله لي عنها ! إنني أتساءل كيف وقعت في الفخّ . إنها أقوى مما كنت أظنّ .

وكانت لورانس صامتة . إنها تحتقر هذا التعالي الظالم يتظاهر به من يعـلم على من لا يعلم . هل تطلعها على الحقيقة ؟ ليس اليوم ، مع جميع هؤلاء المدعوين

في البيت .

– ربما لم تكن لوسيل ، بل احدى صديقاتها .

– كفى كفى ! انها لن تشجّع غراماً لجيلبير مع امرأة اخرى . انني افهم لماذا أخفى عني اسمها : لقد خشي ان أسخر به ! والواقع اني لا أكاد أفهم هذه الهوسة ؛ ولكنها على اي حال لا يمكن ان تدوم. واذا كان جيلبير قد تركها منذ ان عرفني ، فلأن لديه اسباباً وجيهة ، تظلّ الآن قائمة . وسوف يعود اليّ .

ولم تقل لورانس شيئاً . واستطال الصمت . ولا بد ان دومينيك قد عجبت لذلك ؛ ولكن لا . فهي قد تعودت ان تطرح الاسئلة وتجيب عليها ... وقد استطردت بصوت حالم :

– يغريني جداً ان ارسل الى لوسيل رسالة اصف لها فيها بالتفصيل تركيبه الجسميّ واهواءه .

فانتفضت لورانس :

– لن تفعلي ذلك .

– بل سيكون هذا طريفاً . تصوّري هيئة لوسيل ! وهيئة جيلبير !

– لا ، سيحقد علي لذلك حتى الموت . إن خطتي هي على العكس ان اكون لطيفة جداً : ان اربح ما خسرته . إنني اعوّل كثيراً على رحلتنا الى لبنان .

– هل تظنين ان هذه الرحلة ستتم ؟

– بكل تأكيد !

وارتفع صوت دومينيك :

– لقد وعدني منذ اشهر بقضاء عيد الميلاد هذا في بعلبك . ان الجميع يعرفون ذلك . وهو لا يستطيع الآن ان يتهرب .

– ولكن الاخرى ستعارض ذلك .

– سأدعوه الى الاختيار : اذا لم يأتِ الى لبنان معي ، فلن اراه بعد ابداً .

– انه لن يخضع للتهديد .

– ليست لديه رغبة في ان يفقدني . وهذه الحكاية مع لوسيل ليست جدية .

– لماذا اذن حدّثك عنها؟ .

– بدافع لا يخلو من السادية : ثم إنه كان بحاجة الى وقته ؛ ولا سيما الى عطلة نهاية الاسبوع . ولكنك ترين : لم يكن لي الا ان الحّ قليلاً حتى يأتي .

قالت لورانس :

- اذن خبّريه .

ربما كان هذا حلاً . إن دومينيك ستحصل على رضى التفكير بانها هي التي قطعت الصلة . وفيما بعد ، حين تطّلع على الحقيقة ، يكون اقسى ما فيها قد مرّ .

كانت غرفة الجلوس ملأى بالضحك وبالأصوات المرتفعة . وكانوا يشربون الخمر والبوربون والمارتيني . وقدّم جان – شارل الى لورانس قدحاً من عصير الأناناس :

– ليس هناك ما هو مزعج ؟

– لا ، كما أنه ليس هناك ما هو حسن . انظر اليّ .

كانت دومينيك قد وضعت يدها على ذراع جيلبير في حركة امتلاك .

– حين أفكر بانك لم تأت منذ ثلاثة أسابيع ! إنك تعمل أكثر مما ينبغي . ينبغي على المرء أن يعرف كيف يرتاح .

فقال بصوت محايد :

– أعرف هذا جيداً .

– ولكن لا . ليس هناك ما يريح حقاً إلا الريف .

وبسمت له بتدلل لا يخلو من مكر . وكان هذا جديداً عندها ولا يناسبها على الإطلاق . وكانت تتكلم بصوت مرتفع جداً . وقد أضافت تقول :

– أو الرحلات .

ثم التفتت الى تيريون ، ويدها لا تزال متشبثة بذراع جيلبير :

– سوف نقضي عيد الميلاد في لبنان .

– فكرة رائعة . ويبدو أن ذلك مدهش .

– نعم . ولدي فضول بان احضر عيد الميلاد في بـــلد حارّ . ونحن نتصور دائماً عيد الميلاد تحت الثلوج ...

فلم يجب جيلبير بشيء . وكانت دومينيك متوترة جداً حتى أن كلمة كانت تكفي لجعلها تنفجر . ولا بد أنه كان يستشعر ذلك .

وقالت السيدة تيريون بصوتها المغني :

– لقــد خطرت لصديقنا لوزارش فكرة لطيفة . سهرة عيد الميــلاد في طائرة . إنه يصطحب خمسة وعشرين مدعواً : ونحن لا ندري إن كنا سنهبط في لندن أو روما أو أمستردام أو في مكان آخر . وبالطبع سيكون قــد حجز طاولات في أجمل مطعم في المدينة .

قالت دومينيك :

– هذا مسلٍّ .

فقال جيلبير :

– إن الناس عموماً ضعيفو الخيال حين تكون القضية البحث عن وسائل التسلية .

وهذه احدى تلك الكلمات التي فات لورانس معناها . فأحياناً يثير اهتمامها فيلم ما أو يضحكها : أما أن يسليها ... ترى هل يتسلى جيلبير ؟ وهــــل من المسلي ركوب طائرة من غير معرفــة وجهتها ؟ هذا الشك الذي جاءها منـــذ أيام ... ربما كان قائماً على أساس .

وذهبت تجلس مــع جان – شارل ودوفرين وزوجته في زاوية الموقـــد .

وقال جان – شارل :

– من المؤسف أن لا يتمكن الانسان في البنايات الحديثة من تأمـــين ترف مدخنة .

وكان ينظر الى اللهب الذي كان نوره يتراقص على وجهه . وقد نزع سترته من جلد الغزال ، وفتح ياقــة قميصه الأميركي فبدا أصغر سناً وأكثر راحـــة من المعتاد . (وكذلك دوفرين في ثوبه من المخمــل المضلّع : أتكون القضية قضية

ثياب وحسب ؟) .

وقال جان ــ شارل :

ــ لقد نسيت أن أروي لك حكاية ستفتن اباك . إن غولد ووتر يحب نيران الخشب حباً شديداً حتى انه يبرّد في الصيف بيته بواسطة تكييف الهواء ويشعل نيراناً كبيرة .

فضحكت لورانس :

ــ نعم ، إن بابا سيحب هذا .

وكان على طاولة بجانبها مجلات ــ رياليتيه ــ الأكسبرس ــ كانديد ، فوتر جاردين ــ وبعض الكتب : الرواية الحائزة على جائزة غونغور والرواية الحائزة على جائزة رونودو . وكانت ثمة اسطوانات منتثرة على الديوان بالرغم من أن دومينيك لا تستمع أبداً الى الموسيقى .

وأدارت لورانس من جديد عينيها نحوها . كانت تتكلم باسمة ، لامبالية، وهي تأتي بيديها كثيراً من الحركات .

ــ أما أنا فأفضل أن أتناول العشاء عند مكسيم فأنا متيقنة على الأقل بان الطاهي لم يبصق في الصحون ، ولن تكون ركبتاي ملتصقتين بركبتي السيد الجالس على الطاولة المجاورة ، أنا أعرف ان في المطاعم الصغيرة الآن نزعة رياء (سنوبيسم) ولكن ذلك ليس أقل غلاء ، وثمة رائحة شحم يحترق ، ولا يمكن تحريك البنصر إلا ويصطدم باحد ما .

ــ ألا تعرفين مطعم « شيجرتروت » ؟

ــ بلى . ولكني أفضل « لاتور درجان » بالسعر نفسه .

كانت تبدو على غاية الرضى والراحة . لماذا ترى جيلبير قد جاء ؟ وسمعت لورانس ضحكة جان ــ شارل، وضحكة دوفرين وزوجته. وقال جان ــ شارل:

ــ لا ، فكروا جدياً ، ماذا نصبح نحن المهندسين المعماريين المساكين ، بين المتعهدين والمصمّمين والمديرين والمهندسين ؟

وتنهّد دوفرين :

— آه ؟ المصمّمون !

وألهب جان — شارل النـار ، فالتمعت عيناه : أكان في طفولته نيران توقـد من الخشب ؟ مهما يكن من أمر، فإن على وجهه هيئة طفولة وان لورانس لتحس شيئاً ما يذوب فيها : الحنان ؛ ليتها كانت تستطيع أن تجده من جديد ، والى الأبد . . .

وانتزعها صوت دومينيك من حلمها .

— كنت أظن أنا أيضاً أن ذلك لن يكون طريفاً . وقد بدأ ذلـك بداءة سيئة . كانت الشرطة النظامية متعثرة، وقد ظللنا نراوح ساعة قبل أن ندخل: ومع ذلك فقد كان الأمر يستحق الجهد؛ كان ثمة جميع الأشخاص الذين لهم قيمة في باريس . كانت الشمبانيا جيدة . وينبغي أن أقول إني وجدت السيدة ديفول أفضل جداً مما كنت أتوقـــع : صحيح انها ليست رشيقة ، فهي ليست طبعاً لينيت فردوليه ، ولكنها ذات مهابة كبيرة .

وسأل جيلبير بصوت لامبال :

— لقد قيل لي ان رجال المال والسياسة هم وحدهم الذين أُعطوا حق الطعام، بينما اعطي رجال الفن والأدب حق الشراب فقط ، فهل هذا صحيح ؟

قالت دومينيك في ضحكة صغيرة متشنجة :

— لم نكن ذاهبين الى هناك لنأكل .

ما انذله جيلبير هذا ، فقد طرح على ماما السؤال قصداً ليبدو لها منفّراً !

والتفت دوفرين اليه يقول :

— أصحيح انهم يفكرون باستعمال آلات: .I. B. M لرسم لوحات تجريدية؟

فقال جيلبير ببسمة مدوّرة :

— هذا ممكن . ولكني افترض ان ذلك لن يكون مربحاً .

قالت مدام تيريون بلهجة تعجب :

— كيف ! آلة تستطيع الرسم !

فقال تيريون بلهجة ساخرة :

– الرسم التجريدي . لِمَ لا ؟

قال دوفرين :

– أتعرفون أن هناك من يخترع أنغامـــاً لموزار ولباخ ؟ أجـل : النقيصة الوحيدة هي أن آثارهم ليس فيها أية نقيصة ، في حين أن هناك دائماً نقائص لدى الموسيقيين الحقيقيين الذين هم من لحم وعظم !

عجباً ! لقد قرأت ذلك حديثاً ، في مجلة اسبوعية . لقد لاحظت لورانس ، منذ ابتدأت تنظر إلى الصحف ، أن الناس غالباً ما كانوا في محادثاتهم يُلقون مقالات قرأوها . ولِمَ لا ؟ لا بدّ لهم من أن يستمدّوا أنباءهم من جهةٍ ما .

وقال جان – شارل :

– لا نلبث طويلاً حتى تحلّ الآلات محلّ مكاتبنا ومشاغلنا، وسنجد أنفسنا من جديد على الرمل .

فقال جيلبير :

– هذا مؤكد جداً. سندخل عهداً جديداً يصبح فيه البشر لا جدوى منهم .

قال تيريون :

– لسنا نحن . سيبقى هناك محامون دائماً لأنّ أيــة آلة لن تكون قادرة على الفصاحة .

فقال جان – شارل :

– ولكن الناس ربّما يكفـّون عن أن يبقوا حسـّاسين إزاء الفصاحة

– كفى ، كفى ! إن الانسان حيوان ناطق ، وهو يتداعى دائماً للافتتان بالكلمة . إن الآلات لن تغيّر الطبيعة البشرية .

– بل هي تغيّرها !

كان جان – شارل ودوفرين على اتفاق (فان مطالعاتهما متشابهة)، إن فكرة الانسان تحتاج الى مراجعة ، ولا شك في أنها ستختفي ، فهي اختراع من القرن التـــاسع عشر أصبح اليوم بالياً . إن الفنّ في جميع الميـــادين – الأدب والموسيقى والرسم والهندسة المعماريـــة – يطـّرح النزعـــة الانسانية التي كانت

الأجيال السابقة تتبنّاها .

وكان جيلبير صامتـاً ، بهيئة لطيفة ، فيما كان الآخرون يتنازعون الكلام . يجب الاعتراف بان هناك كتباً لا يمكن أن تُكتب بعد ، وأفلامـاً لا يمكن أن تشاهد بعد ، وموسيقى لا يُمكن أن تُسمع بعد ، ولكن الروائع لا تاريخ لها ، وما هي الرائعة ؟ لا بدّ من حذف المقاييس الذاتية ، وهذا مستحيل ، عفواً بل هـذا جهد النقد الحديث كله ، ومقاييس جائزتي غونكور ورونودو ، أودّ لو أعرفها ، فالجوائز هي اليوم أسوأ منها في العام الماضي ؛ آه ! إن هـذا كله لو تعلمون اتفاقات ناشرين ، وأنا أعرف من مصدر موثوق أن عدداً من أعضاء لجان التحكيم يأخذون الرشوة ، وهـذا معيب ، والأمر أكثر إثارة للخجل بالنسبة للرّسامين ؛ فالدعاية تجعل من أي مُشخبط رجلاً عبقرياً ، وإذا اعتبره الجميع عبقرياً ، فهو عبقري . أيّ تناقض ، ولكن لا ، ليس ثمة مقياس آخر ، ليس من مقياس موضوعي .

قالت السيدة تيريون بلهجة حاسمة :

– اوه ! ومع ذلك ! إن ما هو جميل جميل !

وصمت الجميع لحظة ، ثم استأنفوا الحديث . . .

وكالعادة ، اختلطت على لورانس أفكارها؛ إنها دائماً تقريباً على رأي مخالف لرأي الذي يتكلم ، ولكنها لفرط ما يختلف الناس فيما بينهم ، فإن الأمر ينتهي بها إلى أن تناقض نفسها . وبالرغم من أن السيدة تيريون بلهاء عريقة ، فاني أميل الى مثل رأيها : إن ما هو جميل جميل ؛ وما هو صحيح صحيح . ولكن ما قيمة هـذا الرأي نفسه ؟ من أين يأتيني ؟ من بابا ، من الليسيه ، من الآنسة هوشيه . لقد كانت لديّ وأنا في الثامنة عشرة قناعات . وما زال باقياً لهـا منها أشياء ، ليست كثيرة ، بـل هي بالأحرى نوع من الحنين . إنك تشكّ في أحكامهـا : فالأمر في نهايـة المطاف أمر مزاج وظروف . إنني لا أكاد أستطيع القول ، حين أخرج من احدى دور السينما ، هل كان الفيلم جميلاً أم لا .

– هل أستطيع أن أتحدث اليك دقيقتين ؟

فحدجت لورانس جيلبير ببرودة وأجابت :

– ليست لديّ أية رغبة في ذلك .

– إنني ألحّ .

فتبعته لورانس إلى الغرفة المجاورة ، بدافع من الفضول ، بدافع من القلق .

وجلسا ، وأخذت تنتظر .

– أردت أن أخبرك أنني سأقطع الصلة بدومينيك . طبعاً ، ليست تلك الرحلة واردة . ثم إن باتريسيا متفهّمة جداً ، إنسانية جداً : ولكنها تعتبر انها انتظرت بما فيه الكفاية . اننا نريد أن نتزوج في أواخر أيار .

كان قرار جيلبير لا رجوع عنه . والعلاج الوحيد هو قتله : ولو حدث هذا لخفّ عذاب دومينيك . وتمتمت :

– لماذا أتيت ؟ إنك تعطيها آمالاً كاذبة بمجيئك .

– لقد أتيت لأسباب عديدة ، لا أتمنى أن أتخذ دومينيك عدوّة لي ؛ وهي قد أدخلت صداقتنا في الأمر . فاذا استطعت بفضل بعض التنازلات أن احقّق هذه القطيعة في جوّ لطيف ، فهذا أفضل ، وهو أفضل بالنسبة اليها أولاً ، ألست من هذا الرأي ؟

– لن تستطيع ذلك .

فاستطرد بلهجة أخرى :

– نعم ، أعتقد ذلك . لقد أتيت أيضاً لأقف على وضعها النفسي . إنها تصرّ على الاعتقاد بان القضية سحابة صيف . وعليّ أن أفتح عينيها .

– ليس الآن !

– إنني عائدٌ الى باريس هذا المساء ...

وأشرق وجه جيلبير ، وتابع يقول :

– إسمعي : إنني أتساءل اذا لم يكن في صالح دومينيك أن تعدّيها للأمر .

– آه ! هذا هو إذن السبب الحقيقي لحضورك : إنك تريد أن تكلّفني بهذه المهمّة القذرة .

– أعترف بأنني أشمئز من المشكلات العلنية .
– لأنّ خيالك قصير : فليست المشكلات العلنية هي أسوأ الامور ...
وفكّرت لورانس :
– إفعل شيئاً واحداً : أرفض الرحلة ، من غير أن تتحدث عن باتريسيا . إن دومينيك ستكون غاضبة جداً أن تقوم بنفسها بالقطيعة .
فقال جيلبير بلهجة قاطعة :
– تعرفين جيداً ان لا .
وكان على حق . لقد أرادت لورانس أن تصدّق كلمات دومينيك لحظة : « سأعطيه الخيار في القطيعة أو في عدمها » ، ولكنها ظلّت بعد معاتبات وصراخ متمسّكة بالصبر والأمل .
– إن ما سوف تعمله فظيع .
فقال جيلبير بلهجة محزونة :
– إن معارضتك تشقّ عليّ . ليس ثمّة من هو سيّد قلبه . إنني لا أحبّ دومينيك بعد ؛ بل أحب باتريسيا : فأين هي جريمتي ؟
كان لكلمة الحبّ في فمه مذاق داعر . ونهضت لورانس .
قال جيلبير :
– سأكلّمها في أثناء الاسبوع . وأرجوك أن تذهبي لتلقيها بعد مقابلتنا .
فنظرت اليه لورانس في حقد :
– لأمنعها من أن تقتل نفسها تاركةً رسالةً تشرح فيها لماذا فعلت ذلك ؟ ستكون لهذا نتيجة سيئة ، دمٌ على ثوب باتريسيا الأبيض ...
وابتعدت . وكانت سراطين تصرُّ في أذنيها ؛ ضجّة فظيعة لعذاب لا بشريّ . واتجهت نحو المشرب فصبّت لنفسها قدحاً من الشمبانيا . وكانوا يملأون صحونهم ، متابعين حديثاً كانوا قد بدأوه .
وقالت السيدة تيريون :
– تلك الطفلة لا تعوزها الموهبة ، ولكن ينبغي أن تتعلم كيف تحسن

ارتداء الثياب ، فهي جديرة بان تلبس قميصاً ساذجاً مع تنورة مخطّطة .

فقالت جيزيل دوفرين :

– ولكن لاحظي إن ذلك ممكن .

قالت دومينيك .

– إن الخياط العبقري يستطيع أن يفعل كل شيء .

واقتربت من لورانس :

– ماذا قال لك جيلبير ؟

– اوه ! كان يريد أن يوصيني بحفيدة صديقٍ له تهتمّ بالاعلان .

– صحيح ؟

– إنك لا تتصوّرين أن جيلبير سيحدّثني أنا عن علاقاته بك أنت ؟

– كلُّ شيء معه ممكن ، ألا تأكلين شيئاً ؟

كانت شهية لورانس مقطوعة . وقد ارتمت على أريكة وتناولت مجلة . وأحسّت أنها غير قادرة على خوض محادثة . سيكلّمها في أثناء الاسبوع . من يستطيع مساعدتي على تهدئة دومينيك ؟ لقد أحسّت لورانس هذا الشهر بعزلة أمّها . إن لها كتلةً من العلاقات : وليست لها صديقة . ليس لها من هو جدير بالاستماع اليها أو حق بالهائها . فكيف لنا أن نحتمل وحدنا هذا البناء المهدّد الى الى هذا الحدّ ، حياتنا ؟ أيكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الجميع ؟ مهما يكن من أمر ، فانّ لي أنا أبي . والحقّ ان جان – شارل لن يجعلني أبداً شقية .

ورفعت عينيها اليه . كان يتكلم ويضحك ، ويضحكون من حوله ؛ إنه يروق للناس ما أن يهتمّ بذلك . ومن جديد ، صعدت في قلب لورانس حفنة من حنان . لقد كان من الطبيعي ، بعد كل حساب ، أن يكون عصبياً في الأيام الأخيرة . إنه يعرف ما هو مدين به لفرني ، ولكنه لا يستطيع أن يضحّي من أجله بكل مطامحه . وهذا الصراع هو ما كان يثير أعصابه . إن له حسّ النجاح ، ولورانس تفهم ذلك . إن العمل سيكون على غاية الضجر والإملال إذا لم يصرّ المرء على ملاحقة أهدافه رغم كل العقبات .

قال جيلبير بلهجة احتفالية :
ـ اني آسف يا عزيزتي دومينيك ، فأنا مضطر إلى الذهاب .
ـ أليس الوقت مبكراً ؟
قال جيلبير :
ـ لقد جئت قبل الأوان لأن عليّ أن أذهب في ساعة مبكرة .
واستدار يودّع المدعوين وداعاً سريعاً . وخرجت دومينيك من البيت معه .
وأومأ جان ـ شارل الى لورانس :
ـ تعالي . إن تيريون يروي لنا حكايات مثيرة عن دعاويه .
كانوا جميعاً جالسين ، ما عدا تيريون الذي كان يذرع القاعة جيئة وذهاباً وهو يحرّك كمّي ثوب خيالي . وقال لجيزيل :
ـ ما هو رأيي بزميلاتي ، يا سيدتي ؟ هو رأي جيد جداً ؛ فكثيرات منهنّ نساء لطيفات ، وكثيرات منهن موهوبات (وبالإجمال لسن متشابهات) ولكن هناك شيء أكيد : فليس ثمة واحدة قادرة على المرافعة في محكمة الجنايات. إنهنّ لا يملكن القدرة ولا السلطة اللازمتين ، بل انني سأدهشكم اذا قلت انهن لا يملكن الحسّ المسرحي اللازم .
فقال جان ـ شارل :
ـ لقد عرفنا نساء نجحن في مهن كانت تبدو ممتنعةً عليهنّ .
فقال تيريون :
ـ أقسم لكم إنني ألتهم بلقمة واحدة أشدّهنّ دهاء وفصاحة !
قال جان ـ شارل :
ـ ربما حصلت لك مفاجئات . أما أنا ، فأعتقد أن المستقبل للنساء .
فقال تيريون :
ـ ربما ، ولكن شريطة الاّ يقلّدن الرجال كالقرود .
ـ إن القيام بمهنة الرجل لا تعني تقليد الرجل كالقرود .
قالت جيزيل دوفرين :

– إسمع يا جان – شارل ، لا تقل لي ، أنت المطلع على كل شيء ، إنـك تؤيد النساء . إن هذه النزعة قد تجووزت اليوم .

تأييد النساء : إن الحديث عن ذلك يجري طوال الوقت في هـذا الوقت . وسرعان ما كانت لورانس تغيب . إن هذا أشبه بعلم الطب النفسيّ ، والسوق المشتركة ، والقوة الضاربة ، فهي لا تدري كيف تكوّن رأياً في ذلك ، بل ليس لها فيه رأي . إن عندي « حساسية » .

ونظرت إلى أمها التي عادت إلى القاعة وعلى شفتيها بسمة مقتسرة . غـداً ، بعد يومين ، في هذا الاسبوع ، سيقول لها جيلبير كل شيء . لقد انفجر الصوت، وسينفجر في زاويـة الراحة الصمت : « نذل قـذر ! نذل قذر ! » وتمثّلت لورانس من جديد الزهور التي كانت تشبه طيوراً شرّيرة . وحين عـادت الى نفسها ، كانت السيدة تيريون تتكلم في حماسة :

– إن التجريح النظامي شيء منفـّر . على أن ذلك فكرة جميـلة : ففي عشاء ٢٥ كانون الثـاني ، الذي أقيم لصالح الطفولة الجائعة ، قدّموا لنا لقـاء عشرين الف فرنك طعام الهنود الصغار : صحن أرز مع قدح ماء . وكان أن أخذت صحافة اليسار تضحك . فمـاذا تراهم يقولون اذا كنّا نـأكل الكافيار والكبد المسمّنة ؟

قالت دومينيك :

– انتقاد كل شيء ممكن دائماً . وليس أمامنا إلا أن نتركهم يفعلون .

وكانت غائبـة الهيئة ، فهي تجيب على السيدة تيريون بشرود ، بينما جلس الأربعـة الآخرون حول طاولة بريدج ؛ وفتحت لورانس « الاكسبريس » : كانت الأحداث مرويّـةً في أعمدة دقيقة ، فكانت تُلتهم كفنجان حليب ! ليس ثمـة أية خشونة ، وليس ثمة ما يعلـّق أو يخـدش . وأحسّت بالنعاس ، ونهضت على عجل حين تركت السيدة تيريون طاولة البريدج وهي تصرح :

– إن عندي غداً نهاراً مثقلاً . فنحن مضطران إلى الذهاب .

قالت :

– وأنا صاعدة لأنام .

قالت السيدة تيريون :

– لا بدّ إن النوم هنا رائع . وأعتقد أن لا حاجة الى المنوّمات . أما في باريس فلا يُستغنى عنها .

قالت جيزيل دوفرين :

– وأما أنا فقد أوقفت المنوّمات منذ بدأت أتناول أقراص التهدئة .

وقال جان – شارل بمرح :

– حاولت واحداً من اسطواناتهم المهدهدة ، ولكن ذلك لم يهدهدني على الاطلاق .

قال تيريون :

– لقد حدّثوني عن جهاز مدهش يعمل على الكهرباء ويطلق اشارات ضوئية ، رتيبة وباهرة تجلب لك النوم ، وهو يكفّ عن العمل تلقائياً . سوف أوصي على جهاز منه .

قالت لورانس :

– أما أنا ، فلست الليلة بحاجة الى شيء من هذا كله .

ساحرة حقاً هذه الغرف : كانت ممدودة بقماش « جوي » ، مع سرر ريفية ، وأغطية من « باتشورك » ، وعلى المغسلة إناء من خزف . وكان مشقوقاً في الجدار باب يكاد لا يُرى يُفضي الى حمّام . وقد اطلّت من النافذة واستنشقت رائحة أرض باردة . بعد قليل سيأتي جان – شارل : إنها لا تريد أن تفكر بعدُ إلاّ فيه ، بوجهه الجانبيّ المضاء بنور اللهب الراقص . وفجأة ، كان هناك ، وأخذها بين ذراعيه ، فأصبح الحنان في عروق لورانس دفقةً محرقة ، فترّ تحت شهوةً بينما كانت شفاهها تلتقي .

– يا صغيرتي الحبيبة ! إنك لست خائفة أكثر مما ينبغي ؟

فقالت لورانس :

– لا ، كنت مسرورة جداً أني لم أسحق راكب الدراجة .

وأسندت رأسها الى مسند الأريكة الجلدية المريحة . إنها الآن ليست بعد مسرورة إلى ذلك الحدّ ، من غير أن تعرف سبب هذا .

– هل تريدين فنجان شاي ؟

– أوه ! لا تزعج نفسك .

– خمس دقائق فقط .

لعبة البارمانتون ، تلفزيون : كان الليل قد هبط حين ذهبنا ؛ ولم أكن أسوق بسرعة ؛ وكنت أحسّ حضور جان – شارل إلى جانبي ، وأتذكّر ليلتنا ، وأنا أستكشف الطريق بنظري . وفجأة ، انبثق من ممرّ الى يميني راكب دراجة أحمر الشعر في ضوء المصباحين . وأوقفت السيارة إيقافاً مفاجئاً، فانحرفت وانقلبت في الحفرة .

– هل أصبتَ بشيء ؟

فقال جان – شارل :

– لا شيء . وأنتِ ؟

– لا شيء .

وقطع التيار الكهربائي . فانفتح الباب .

– هل جُرحتما ؟

– لا .

كانت عصبة من راكبي الدراجات – من الفتية والفتيات – تحيط بالسيارة التي كانت قد تسمّرت ، ومقدّمتها إلى أسفل ، وعجلاتها ما تزال تدور ؛ وصحت بصاحب الشعر الأحمر :

– يا لك من أبله !

ولكن أيّ عزاء ! كنت قد ظننت أني مررت على جسمه . وارتميت بين ذراعي جان – شارل : « يا حبيبي ! كان حظّنا كبيراً . ليس ثمة أيّ خدش!» ولم يكن يبتسم :

– ولكن السيارة حُطام !
– هذا صحيح . ولكن هذا أفضل مما لو كنت أنت أو أنا .

وتوقّف بعض سائقي السيارات ؛ وشرح أحد الفتية :

– هـــذا الأبله ، لم يكن ينظر إلى شيء ، فارتمى على السيارة ؛ وإذ ذاك انحرفت السيدة الصغيرة الى اليسار .

وكان صاحب الشعر الأحمر يتمتم بالاعتذارات ، والآخرون يشكرونني . . .

– إنه مدينٌ لك بشمعة معتبرة !

وعلى حافة هذه الطريق المبتلّة ، إلى جانب السيارة المحطمة ، كان جـــذل يصعد فيّ مسكراً كأنه الشمبانيا . وكنت احبّ راكب الدراجة هـــذا الأبله لأنني لم أقتله ، ورفاقه الذين كانوا يبسمون لي ، وهؤلاء المجهولـــين الذين كانوا يعرضون علينا أن يحملونا إلى باريس . وفجأة ، أخـــذ رأسي الدوار ، وفقدت وعيي .

واستردّت وعيها في قلب مستشفى . ولكنها لا تكاد تذكر هـــذه العودة : لقد أصيبت ، رغم كل شيء ، بصدمة . وكان جان – شارل يقول إنـــه ينبغي شراء سيارة أخرى ، وإنه ليس بالإمكان استخراج مئتي الف فرنـــك من بقايا تلك السيارة . كان مستاء ، وهذا مفهوم ؛ ولكن ما كانت لورانس تفهمه أقلّ من ذلك هو أنه كان يبدو عاتباً عليها . ليست الغلطة ، على كل حال ، غلطتي ، بل أنا فخورٌ أن نكون قد اضطجعنا في الحفرة على هذا النحو الرقيق ؛ ولكن جميع الأزواج ، في نهايـــة المطاف ، مقتنعون بأنهم وراء المقود يتدبّرون أمرهم خيراً من نسائهم . نعم ، أذكر ، لقد كان من سوء النية بحيث أني حين قلت قبل أن نأوي إلى النوم : « لم يكن ممكناً لأحد أن يخرج من هذا الحادث دون أن يحطم السيارة » أجاب : « إنني لا أجد هذا بارعاً على الإطلاق ؛ فنحن لم نؤمّن السيارة إلاّ ضد الغير » .

– ولكنك لم تكن تريد طبعاً أن أقتل الرجل ؟
– إنك لن تقتليه . كنت ستحطـّمين له ساقاً . . .

– بل كان من الممكن جداً أن أقتله .

– لو حصل ذلـك ، لما كان يكون مظلوماً . إن الجميع كانوا سيشهدون لصالحك .

قال هذا من غير أن يعني أية كلمة فيه ، وإنما قاله ليسوءني ، لأنه كان مقتنعاً بانه كان بوسعي أن أخرج من الحادث بأضرار أقلّ . وكان هذا خطأ .

قال أبوها وهو يضع الصينية على طاولة تغطّيها الصحف :

– هذا هو الشاي ، مزيج خاصّ . وأنت تعرفـين عمّ أتساءل : لو كانت الصغيرتان معك في السيارة ، أكنت تتصرفين التصرّف نفسه ؟

قالت لورانس :

– لا أدري .

وتردّدت . ثم فكّرت : « إن جـان – شارل هو انا أخرى . إننـا متضامنان . وقد تصرّفت كما لو كنت وحدي . امـا أن أعرّض بنتيّ للخطر حتى أوفّر شخصاً مجهولاً ، فأيُّ عبث هذا ! وجان – شارل ؟ إنـه هو الذي كان جالساً في مكان الميت . وهو على حق ، بعد كل حساب ، أن يغضب .

واستطرد أبوها :

– أمس ، مع البنتين كنت مستعداً لهـدم أحد النـُزُل ، بدلاً من التعرّض لأية مجازفة .

قالت لورانس :

– كم كانتا مسرورتين . لقد عاملتهما كأنهما ملكتان .

– آه ! لقد أخذتهما الى أحـد تلك الفنادق حيث ما يزال الناس يأكلون « كريما » حقيقية ، وفرُّوجاً مغذّى بالحبوب الجيّدة ، وبيضاً حقيقياً . هـل تعلمين أنهم في الولايات المتحدة يغذُّون الدجاج بالأشنة ، وأن من الواجب زرق البيض بنتاج كيمائي لإعطائه مذاق البيض ؟

– هذا لا يدهشني . كانت دومينيك قـد جلبت لي من نيويورك شوكولا معطّرة كيميائياً بالشوكولا .

وضحكا معاً. من يظنّ أني أنا لم أقض قط معه عطلة من عطل نهاية الاسبوع؟ إنه يقدّم الشاي في فناجين ناقصة . وكان ثمّة ضوءٌ مركّب على مصباح زيتي قديم ينير الطاولة التي كان مفتوحاً عليه مجلّد من مجلّدات « لابلياد » : إنه يملك المجموعة الكاملة . ولم تكن به حاجةٌ لتعذيب خياله من أجل أن يتسلّى .

وقال :

– إن لوبز خبيثة تماماً . أمـــا كارين فهي تشبهك أكثر . وحين كنتِ في سنّها كنتِ في مثل هذه الجدّية والرصانة .

قالت لورانس :

– نعم ، لقد أشبهتها . (هل تشبهني هي ؟)

– وأنا أرى أن خيالها قد نما كثيراً .

– هل تصدّق أن مارت تدعوني الى أخذها للمناولة ؟

– هي تحلم بأن تردّنا جميعاً للايمان . إنها لا تعظ : بل تقدّم نفسها مثالاً . وكأنها تقول : انظروا كم يبدّل الايمان امرأةً وأيّ جمال داخلي تبلغه ! ولكن المسكينة ... ليس من اليسير جعل الجمال الداخلي خارجياً ..

– إنك خبيث !

– أوه ! إنها فتاة طيبة . إنك أنت وأمك تحققان عملين لامعين؛ أما مهنة أمّ الأسرة ، فمهنة باهتة جداً : فهي لذلك تتجه الى القداسة .

– وان يكون هوبير هو وحده شاهد حياتها ، فهذا بالطبع غير كاف .

– مَنْ كان حاضراً في « فوفرول » ؟

– جيلبير مورتيه ، ودوفرين وزوجته ، وتيريون وزوجته .

– إنها تستقبل هذا الوغد ! أنت تذكرين حين كان يأتي إلى البيت . فـــلا يكفّ لحظة عن الكلام والخطابة ، من غير أن يكون لكلامه معنى . أما أنا ، فقد كنت أنطلق في الحياة خيراً منه ، من غير ادّعاء . لقد تدبّر أمر حياتـــه كلّها بالدسائس والدعاية . وهذا ما كانت دومينيك تريدني أن أصبحه !

– لم تكن تستطيع ذلك .

– بل كنت أستطيع لو انني قمت بما قام به من قذارات .

– هذا ما أقصده .

عدم فهم دومينيك . « لقد اختار التوسّط » لا . حياة بلا عسف ولا إيذاء ، تملك الوقت للتفكير والتثقّف ، بدلاً من العيش المضطرب الذي يحياه من يعيش في وسط ماما ، والذي أحياه أنا أيضاً .

– حال امّكِ ما تزال جيدة ؟

فتردّدت لورانس :

– الأمور معقّدة بينها وبين جيلبير مورتييه . أعتقد انه سيتركها .

– لا بدّ أنها مندهشة تماماً ! إنها أذكى من ملكة جمال العالم وأجمل في العين مما كانت السيدة روزفلت : فهي تظنّ نفسها متفوقة على جميع النساء .

– إنها الآن شقية .

كانت لورانس تفهم قسوة أبيها ، ولكن دومينيك تثير شفقتها .

– لقد فكرت بما قلته لي عن الشقاء . إنه موجود على أي حال . إنك تسيطر على المواقف . ولكن ذلك ليس في متناول الجميع .

– إن ما أستطيعه يستطيعه الجميع . فلست استثناء .

فقالت لورانس بحنان :

– بل أنا أجد ان بلى . فالوحدة مثلاً ، ليس هناك كثيرون يستطيعون تحمّلها .

– لأنهم لا يحاولون ذلك باخلاص. إن أعظم مباهجي انما أتتني من الوحدة .

– هل أنت حقاً مسرور بحياتك ؟

– إنني لم أفعل قطّ ما اؤاخذ نفسي عليه .

– إنك لمحظوظ .

– وأنتِ ، ألست مسرورة من حياتك ؟

– أوه بلى ! ولكنني اؤاخذ نفسي على أشياء ؛ انني أهتمّ أقلّ مما ينبغي بابنتيّ ؛ وأراك أقل مما ينبغي .

– إن لك بيتك ومهنتك .

– صحيح ، ولكن مع ذلك ...

وقالت في نفسها : لولا لوسيان لكنت أملك وقتاً أكبر ، ولكنت أرى أبي أكثر ، ولكان بوسعي ، على غراره ، أن أقرأ وأفكر . إن حياتي محمّلة أكثر مما ينبغي .

– إنني الآن مضطرة للعودة الى البيت .

ونهضت :

– إن شرابك الممزوج لذيذ .

– ولكن قولي لي ، هل أنت متأكدة من أنك غير مصابة برضوض داخلية ؟ يجب عليك أن تستشيري طبيباً .

– لا ، لا . إن حالتي حسنة جداً .

– ماذا ستعملين بلا سيارة ؟ أتريدين أن أعيرك سيارتي ؟

– لا ، لا أريد أن أحرمك منها .

– هذا لن يحرمني ؛ فأنا نادراً ما أستعملها . إنني أفضّل أن أتسكع على قدميّ كثيراً .

وفكّرت في انفعال وهي تجلس إلى المقود : إنه هو تماماً . لا ينخدع بأحد بل يستطيع أن يصمد للجميع . غير أنه شديد الحضور ، شديد التنبّه ومستعد دائماً ليؤدّي خدمة الآخرين . وكانت ما تزال تحسّ حولها بظلّ بيته الدافيء . يجب أن أتخفّف من أعباء حياتي . يجب أن أتخلّص من لوسيان .

وقرّرت : « هذا المساء بالذات » لقد قالت انها خارجة مع « مونا » ؛ وصدّقها جان – شارل ، وهو يصدّقها دائماً ، لقصورٍ في خياله . إنه لا يخونها بكل تأكيد ، ولا تنتابه فكرة الغيرة عليها .

– هذا المكان جميل ، أليس كذلك ؟

فقالت :

– جميل جداً .

بعد ساعةٍ قضتها في منزل لوسيان ، ألحّت على الخروج . وكان يخيّل اليها انّ من الأسهل التحدّث في مكان عام مما هو في صميمية غرفـة. وأصطحبها إلى ملهىً أنيق من ملاهي أول القرن : أضواء خافتة ، مرايا ، نبات أخضر ، زوايا خفيّة فيها أرائك طويلة . لقد كان بامكانها أن تختلق هذا الاطار لتبرز في أحد الأفلام قيمة صنفٍ من أصناف الشمبانيـا أو الخمر القديم . واحدٌ من مساويء المهنة : إنها تعرف أكثر مما ينبغي كيف يتكوّن ديكورٌ مـا ، فهو يتحلّل تحت نظرها .

– ماذا تأخذين ؟ إن عندهم أنواعاً مشهورة من الويسكي .

– أطلب لي منها كأساً ، ستشربها أنت .

– أنت جميلة هذا المساء .

فابتسمت بلطف :

– تقول لي ذلك كلّ مرة .

– وهذا صحيح كل مرة .

وألقت نظرة الى المرآة . امرأة جميلة مرحةٌ بحذر ، ذات مزاج وتحفُّظ : هكذا يراني لوسيان . وكان ذلك يروق لي . أمـا في نظر جان – شارل فهي فعّالة ، مستقيمة ، صافية الذهن ، وهـذا خطأ أيضاً . جميلة في العين ، هـذا صحيح . ولكنّ كثيرات من النساء هنّ أجمل . تلك سمراء برّاقة ، ذات عينين كبيرتين خضراوين تحيط بهـما جفون مستعارة كبيرة ، ترقص مع شاب أصغر منها سناً بقليل : انني أفهم أن يفقد رجلٌ عقله من أجل مثل هذه المخلوقـة . انهما يتبادلان البسمات ، ويتلامس خدّاهما أحياناً . أهو الحبُّ ؟ اننا نحن أيضاً نتبادل البسمات ، ونتلامس أيدينا .

– ليتك تعرفين أيّ عـذاب تشكله نهايات الاسبوع هذه ! ليلة السبت ... إنني أستطيع أن أشكّ في الليالي الأخرى . أما هذه فأعرفها . إنها هوّة حمراء في قلب اسبوعي . ولقد شربت حتى ثملت .

– لقد كنت على خطأ كبير . فليس لهذا مثل هذه الأهمية .
– ومعي أيضاً ليس لهذا مثل هذه الأهمية .
فلم تجب ، كم أصبح مملاً ! إنه يقضي الوقت كله في العتاب . واذا وجّه لي عتاباً آخر ، فسأجيبه : في الواقع ...
واقترح عليها :
– هل تنهضين لنرقص ؟
– فلنرقص .

وردّدت لنفسها : « هذا المساء بالذات » . لماذا بالضبط ؟ ليس بسبب ليلة « موفرول » ، فانه لا يزعجها أن تنتقل من سرير الى آخر : فالأمر متشابهٌ تماماً . ثم إن جان – شارل قد أثلجها حين ارتمت ، بعد الحادث ، بين ذراعيه فقال بجفاء : « لقد أصبحت السيارة حطاماً . » إنما السبب الحقيقي ، الوحيد ، هو أنّ الحبّ مزعج جداً حين يكفُّ المرء عن ان يحبّ . كلّ هذا الوقت الضائع . وكانا صامتين ، كما لو انهما غالباً ما صمتا ؛ ولكن أتراه يشعر انه ليس هو الصمت نفسه ؟

وتساءلت وهي تعود للجلوس على الأريكة : « والآن كيف أتأتى للأمر؟» وأشعلت سيكارة . إن جان – شارل يقول إن الناس يدخنون السكاير دائماً في الروايات ذات الطراز القديم ، وهذا شيء مصطنع . ولكن الناس غالباً ما يفعلون ذلك في الحياة حين يكونون بحاجة الى التماسك .
قال لوسيان :
– أنت أيضاً تستعملين أعواد الثقاب ؟ أنت التي تملكين الذوق المرهف ؟ ما أبشع ذلك !
– ولكنه سهلٌ مناسب .
– كم أتمنى أن أقدّم لك قدّاحة جميلة . جميلة حقاً . من ذهب . ولكن لا أملك حتى حقّ ان أقدّم لك هدية .
– كفى ! كفى ! إنك لم تقصّر في ذلك .

– كانت تلك أشياء تافهة .

كانت تقول عن العطور والوشاحات انها نماذج دعائية . أما بالنسبة لعلبة مساحيق أو لقداحة من ذهب ، فإن جان – شارل جدير بان يستغرب !

– أنت تعلم أني لست متعلقة بالحاجيات . وقد نفّرني منها ما أقوم به من الدعاية لها ...

– إنني لا أفهم العلاقة . إن شيئاً جميلاً مرصودٌ للبقاء ، وهو محمّل بالذكريات . وهذه القدّاحة بالذات هي التي أشعلت بها سجايرك حين جئت الى منزلي للمرة الأولى .

– ليس المرء بحاجة الى هذا لكي يتذكّر .

والحق أن لوسيان هو أيضاً يعيش خارج نفسه ، بطريقة مختلفة غير طريقة جان – شارل . وأنا لا أعرف من هو مختلف إلاّ بابا . إنّ أماناته قائمةٌ فيه ، لا في الأشياء .

وسأل لوسيان :

– لماذا تحدثينني بهذه اللهجة؟ لقد أردت أن نخرج، فخرجنا؛ إنني أفعل كل ما تريدين . وتستطيعين أن تكوني أكثر لطفاً .

فلم تجب بشيء .

– إنك طوال السهرة لم تقولي لي كلمة رقيقة .

– لم تكن هناك مناسبة .

– لن تكون هناك مناسبة أبداً .

وقالت في نفسها : « هذه هي اللحظة المناسبة » . إنه سيتألم قليلاً ، ثم يتعزّى . وفي هذه الدقيقة بالذات ، أكوام من العشّاق يقطعون علاقاتهم ؛ وبعد عام ، لن يفكّروا بهذا بعدُ أبداً .

– اسمع ، إنك لا تكفّ عن العتاب . فالأفضل أن نتكاشف بصراحة .

فقال في حيوية :

– ليس لديّ ما أكشفه لك . ولست أطلب منك شيئاً .

– بلى ، بصورة لا مباشرة . وأريد أن أردّ عليك . إنني أحتفظ لـك بأكبر المحبّة ، وسأحتفظ بذلك أبداً . ولكنني لا أحبُّك بعدُ حبًّا . (وهـل فعلت ذلك من قبل ؟ هل لهذه الكلمات من معنى ؟)

وساد صمت . وكان قلب لورانس يخفق خفقاً أسرع ، ولكنّ الأشقّ قـد مضى . لقد لُفِظت الكلمات النهائية . يبقى إنهاء المشهد .

وقال لوسيان :

– أعرف ذلك منذ وقت طويل ، فلماذا تحسّين الحاجة الى أن تقوليه لي ، هذا المساء ؟

– لأن علينا أن نستخرج من ذلك النتائج . فإذا لم يكن هذا حبًّا بعـد ، فالأفضل أن نمتنع عن النوم معاً .

– أنا أحبُّك . وهناك كثيرون ينامون معاً من غير أن يكون ثمـة حب مجنون .

– إنني لا أرى مبرّراً لفعل ذلك .

– بكل تأكيد ! فأنت تملكين كل ما تحتاجين اليـه في البيت . وأنا ، أنا الذي لا أستطيع بعدُ الاستغناء عنك ، فاني أصغر همومك .

– على العكس . فأنا انما أفكـّر بك أنت قبل كل شيء . أنت غالباً مـا تقول إنني أمنحك أقـل جداً ممـا ينبغي ، أعطيك ُفتاتاً . إن امرأة أخرى ستجعلك أكثر سعادة .

– يا لها من مساعدة مؤثّرة !

وترنّح وجه لوسيان ، فتناول يد لورانس :

– أنت لا تتكلمين جادّة ! وقصتنا كلّها ، وليالي الهافر ، والليـالي في غرفتي ، وفرارنا إلى بوردو ، أتمحين كلّ شيء ؟

– لا . سأذكر ذلك دائماً .

– لقد بدأت تنسينه .

إنه يبتهل الى الماضي ، ويتخبّط ؛ وهي تعطيه الجواب بهدوء ؛ وذلك بلا

جدوى تماماً، ولكنها تعرف ما يكون المرء مديناً به لشخص يريد أن يتركه؛ سوف تستمع اليه بلطف حتى النهاية ، فهذا أقلُّ الأشياء . وقد نظر إليها بهيئة متّهِمة :

– فهمت ! هناك رجل آخر !

– أوه ! مَن كان يعيش حياتي . . .

– الواقع ان لا ؛ فأنا لا أعتقد ذلك . إنك لم تحبّيني. وأنت لا تحبين أحداً. إن هناك نساء باردات في السرير . أما أنت ، فأسوأ . انك مصابةٌ ببرودة في القلب .

– ليست هذه غلطتي .

– واذا قلت لك اني ذاهب لأحطم رأسي في شارع السيارات ؟

– لن تكون بليداً لهذا الحدّ . هيّا ،لا تجعل من ذلك مأساة ، واحدةٌ تخسرها . . . كم هم قابلون للمبادلة ، الناس . . .

– إن ما تقولينه هنا فظيع .

ونهض لوسيان :

– لنعُدْ . إنك تعطينني الرغبة في ضربك .

ومضت بهما السيارة صامتين حتى منزل لورانس ، وهبطت فظلّت لحظة متردّدة على حافة الرصيف . ثم قالت :

– الى اللقاء .

– لا ، ليس الى اللقاء ؛ إنّ محبّتك تستطيعين أن تدخليها في مؤخّرتك . سوف أغيّر وضعي ، ولن أراك بعدُ طول حياتي .

وصفق باب السيارة ، وانطلق . ولم تكن كثيرة التفخر بنفسها ، كما انها لم تكن مستاءة . وقالت : « كان لا بدّ من أن أفعل ذلك » . وهي لا تعرف جيداً لماذا .

التقت لوسيان اليوم في بوبلانف ، ولكنهما لم يتبادلا الكلام . والساعة الآن

العاشرة مساء . انها ترتّب غرفتها ، واذ بها تسمع جرس التلفون وصوت جان ـ شارل :

ـ لورانس ! إن أمك تريد أن تتحدث اليك .

فعجّلت تقول :

ـ أهذه أنت ، يا دومينيك ؟

ـ نعم ، تعاليْ فوراً .

ـ هل هناك شيء ؟

ـ سأقوله لك .

ـ انني آتية .

وأخذ جان ـ شارل كتابه من جديد ؛ وسأل بلهجة ضجرة :

ـ ماذا هناك ؟

ـ أعتقد أن جيلبير قد تكلم .

ـ ما أكثرها تعقيدات !

وارتدت لورانس معطفها ، وذهبت تقبّل ابنتيها . فقالت لويز :

ـ لماذا أنت ذاهبة في هذه الساعة ؟

ـ إن ماما مريضة بعض الشيء ، وقد طلبت مني أن أشتري لها أدوية .

وهبط بها المصعد إلى المرأب حيث صفّت السيارة التي كانت قد استعارتها من أبيها . لقد تكلم جيلبير ! وتراجعت الى خلف ، ثم خرجت بالسيارة . هدوءاً، هدوءاً ، ولأتنفّس تنفّساً عميقاً عدة مرات . يجب أن أحتفظ برباطة جأشي ، وألاّ أقود أسرع مما يجب .

ومن حسن الحظّ انها وجدت مكاناً على الفور فصفّت بجانب الرصيف. وظلت لحظة لا تتحرك في أسفل السلم . ولم تكن تملك الجرأة على الصعود ، وعلى دقّ الجرس . ما الذي ستجده خلف الباب ؟ وصعدت ، ودقت الجرس .

ـ ماذا جرى لك ؟

فلم تجب دومينيك . وكانت مسرّحة الشعر ، آخذة كل زينتها ، ولكن

نظرها كان جافاً ، وكانت تدّخن بعصبية . ثم قالت بصوت مكتوم :

– لقد خرج جيلبير الساعة .

وأدخلت لورانس الى غرفة الاستقبال :

– إنـه نذل قذر . ملك القذرين . وكذلـك زوجته . جميعاً . ولكنني سأدافع عن نفسي . إنهم يريدون جِلدي : ولكنهم لن يحصلوا عليه .

فسألتها لورانس بنظرها ؛ وجعلت تنتظر ؛ وكانت الكلمات تكاد لا تتشكل في فم دومينيك :

– ليست لوسيل ، بل باتريسيا . تلك البلهاء ، سيتزوّجها .

– يتزوجها ؟

– يتزوجها . هـل تتصوّرين ؟ إنني أتمثّل ذلك منذ الآن . عرس كبير في « القصر » وحوله زهر البرتقـال . في الكنيسة ، باعتبار انه لم يكن مـع ماري – كلير قد مرّ بالسيد الكاهن . وأرى لوسيل منفعلة متأثّرة ، تبدو أمّاً صبية للعروس . لا . إن هذا لمضحك حتى التشنّج !

وانفجرت ضاحكة ، ورأسها مقـلوب إلى خلف ، وهي مستندة الى ظهر الأريكة ؛ وظلّت تضحك وتضحك ، وعينها ثابتـة ، ووجهها أبيض ، وتحت جلد العنق كانت حبالٌ غليظة تـبرز ، واذا هي فجأة عنق امرأة عجوز . في هذه الحالات ، يجب صفع الناس أو قذف وجوههم بالمـاء . ولكن لورانس لا تجرؤ . بل اكتفت بالقول :

– هدّئي نفسك . أرجوك ، هدّئي نفسك !

وكانت نارٌ من خشب تحتضر في الموقد ، والجوُّ حارّ جداً .

وتوقّف الضحك ، وسقط رأس دومينيك الى أمام ، وامحّت حبال العنق ، واسترخى الوجه . كان يجب أن تتكلم فوراً .

– هل قبلت ماري – كلير الطلاق ؟

– إنها على غايـة السعادة : إنها تكرهني . وأنا أفترض انهـا ستشارك في العرس ..

وانسحقت قبضة دومينيك على ذراع الأريكة :

– لقد صارعت طوال حياتي . وتلك الحمارة الفرج تصبح وهي في العشرين امرأة واحدٍ من أغنى رجال فرنسا . وستكون ما تزال شابة حين يفطس تاركاً لها نصف ثروته . أتجدين ذلك عادلاً ؟

– أوه ! العدالة . اسمعي : لقد بلغت ما بلغته بفضلك وحدك ، وهذا جميل جداً . لم تحتاجي الى أحد . هذا يدلّ على قوتك . أريهم أنك قوية وانك غير مهتمّة بجيلبير . . .

– أتجدين جميلاً أن يبلغ المرء بنفسه ما يريد ! إنك لا تعرفين ما يعني ذلك . ما يجب عمله ، ومعاناته ، ولاسيما حين تكونين امرأة . لقد كنت طوال حياتي مذلّلة . ومع جيلبير . . .

وانكسر صوت دومينيك :

– مع جيلبير كنت أُحسّني محميّة ؛ في أمان ؛ أخيراً في سلام ، بعد تلك السنوات الكثيرة . .

قالت هذه الكلمات بلهجة لم تتمالك لورانس نفسها معها من الاندفاع نحوها . الأمان ، السلام . يخيّل اليها أنها تلمس حقيقة هذه الحياة التي كانت شديدة الحرص عادة على التخفّي .

– حبيبتي دومينيك ، يجب أن تكوني ممتزة بنفسك ، وأن تكفي عن الإحساس بالذلّ . إنسي جيلبير ، إنه لا يستحقّ أن تتحسّري عليه . إنّ هذا طبعاً قاسٍ ، وسيستغرق بعض الوقت ، ولكنك ستتغلبين عليه .

– أليس مذلاً أن يُلقى بالمرء الى الحثالة كبلبل عجوز ؟ آه ! إنني لأسمعهم يقهقهون . . .

– ليس هناك ما يستدعي القهقهة .

– سيقهقهون مع ذلك !

– سيكونون إذن بلهاء . فلا تهتمّي بهم .

– ولكنني لا أستطيع . إنك لا تفهمين . أنت كأبيك ، تسبحين خارج

العالم . أما أنا ، فمع هؤلاء أعيش .

– انقطعي عن رؤيتهم .

– ومَنْ أرى ؟

وبدأت الدموع تجري على وجه دومينيك المتقع :

– إنه لفظيع أن أبدأ الشيخوخة. ولكنني كنت أقول إنّ جيلبير سيكون موجوداً ، سيكون موجوداً دائماً . ثم يزول هذا ، عجوز ووحيدة : هـذا فظيع .

– لست بالعجوز .

– سأكون عجوزاً .

– ولست وحيدة . إنني لك . اننا لك .

وظلت دومينيك تبكي . كان ثمة تحت الأقنعة امرأة من لحم ودم ، ذات قلب تحسُّ نفسها تشيخ ، وترعبها الوحدة ؛ وتمتمت :

– إن المرأة بلا رجل هي امرأة وحيدة .

– ستلتقين رجلاً آخر . وفي انتظار ذلك ، لديك عملُك .

– عملي ؟ أتظنين أنّ هذا يحمل لي شيئاً ما ؟ في الماضي ، نعم ، لأنني كنت أريد أن أصل . أما الآن ، فقد وصلت ، وأنا اتساءل إلامَ وصلت ؟

– الى ما كنت تريدين بالذات . إن لك مركزاً لا مثيل له . وأنت تقومين بعملٍ مشوق .

ولم تكن دومينيك تصغي . كان بصرها مسمّراً في الجدار ، قبالتها :

– امرأة واصلة ! هذا من بعيد ذو أهمية . أما حين تجدين نفسك وحيدة في غرفتك ، عند المساء ... وحيدة نهائياً .

وارتعشت ، كما لو انها كانت خارجة من رجفة :

– انني لن أحتمل ذلك !

« بل ستحتمل ، ستحتمل » هكذا كان يقول جيلبير . صحيح هذا أم لا ؟

– سافري . إذهبي الى بعلبك بدونه .

– وحدي ؟

– مع صديقة .

– هل تعرفين لي صديقات ؟ ومن أين آخذ المال ؟ انني لا أدري إن كان بامكاني بعدُ أن أحتفظ بمنزلي في « فوفرول » ، إن صيانته تكلف غالياً جداً .

– استقلي سيارتك ، إهبطي إلى ايطاليا ، غيّري أفكارك .

– لا ! لا ! لن أخضع . بل سأعمل شيئاً ما .

واستردّ وجه دومينيك قسوته حتى أحسّت لورانس بخوف غامض .

– ماذا ؟ ماذا تستطيعين أن تفعلي ؟

– سأنتقم على كل حال .

– وكيف ذلك ؟

فتردّدت دومينيك ؛ وشوّه فمَها نوعٌ من الابتسام :

– إنني على ثقة من أنهم قد أخفوا على الصغيرة مضاجعات أمّها مع جيلبير . سأخبرها ذلك . وسأخبرها أيضاً كيف كان يتحدث عن لوسيل : ثدياها الى ركبتيها ، وكل الباقي ...

– إنك لن تفعلي ذلك ! سيكون هذا جنوناً . انك لن تذهبي للقائها .

– لا . ولكنّ بامكاني أن أكتب لها .

– انك لست جادّة فيما تقولين ؟

– ولِمَ لا أكون جادّة ؟

– سيكون ذلك داعياً الى الاشمئزاز !

– وما يفعلونه لي ، ألا يدعو للاشمئزاز ؟ الأناقة ، اللعبة الرياضية ، أي كلام فارغ ! إنه لا يحقّ لهم أن يجعلوني أتألم : ولن أردّ لهم شرّهم خيراً .

لم يسبق للورانس أن حكمت قطّ على دومينيك . انها لا تحكم على أحد ؛ ولكنها مع ذلك كانت ترتجف . ما أشدّ السواد في ذلك القلب ، حتى لكأنّ أفاعي تتلوّى فيه . كان ينبغي الحيلولة دون ذلك ، بأي ثمن .

– لن تبلغي من ذلك شيئاً ؛ بل ستنحطّين في أعينهم ، وسيُقام العرس على

أي حال .

قالت دومينيك :

– هذا ما أشكُّ فيه .

وفكّرت ، وحسبت :

– إن باتريسيا بلهاء . إنهـا من نوع لوسيل : إنّ لنا عشّاقاً ، ولكنّ ابنتنا لا تعلم من ذلك شيئاً ، إن ابنتنا بكر عذراء ، إنها تستحق زهرتها البرتقالية ..

كانت لورانس مشدوهة بتبذُّل دومينيك الفجائي . لم يسبق لدومينيك قط أن كان لها مثل هذا الصوت ، وهذه اللغة ؛ إن امرأة اخرى هي التي تتكلم ، وليست هي دومينيك .

– وإذن ، فحين تعرف طفلة ماري الحقيقة ، أعتقد انها ستصاب بصدمـة طريفة .

– انها لم تؤذك ، ليست هي التي آذتك .

– بل هي أيضاً .

وأضافت دومينيك بلهجة عدائية :

– لماذا تدافعين عنها ؟

– بل أدافع عنك ضد نفسك . اسمعي ، لقد كنت تقولين دائماً إن على المرء أن يعرف كيف يتلقى الضربات القاسية ؛ لقد كنت شديدة الحنق على جان تكسييه .

– ولكنني لا أنتحر : بل أنتقم .

ما ينبغي أن تقول ، أية حجّة تلتمس ؟

– سيقولون انك تكذبين .

– لن تحدّثها بشيء : ستحقد عليها حقداً أشدّ من أن يُحتمل معه الكلام .

– افرضي انها تحدّثت اليها . سوف يرويك في كل مكان انك كتبت هـذه الرسائل .

– لا . إنهم لن يغسلوا ثيابهم القذرة أمام الناس .

– سيقولون انك كتبت رسائل قذرة ، من غير أن يوضّحوا .

– حينذاك ، أنا التي سأوضّح .

– أتتصوّرين ما سيكون رأيهم فيك ؟

– أنني لا أدع الناس يسيرون على قدميّ . انني على أي حال امرأة مهجورة ؛ امرأة عجوز مهجورة من أجل فتاة صبية . وأنا أفضل أن اثير الكراهية على أن أثير السخرية .

– أبتهل اليكِ . . .

قالت دومينيك :

– آه ! انك تتعبينني . حسناً . لن أفعل ذلك . وماذا بعدُ ؟

ومن جديد ، تحلل وجهها ، وانفجرت باكية :

– إن الحظ لم يواتني قطّ . لقد كان أبوك عاجزاً . نعم ، عاجز . وحين التقيت أخيراً رجلاً ، رجلاً حقيقياً ، هجرني الى بلهاء ذات عشرين عاماً .

– أتريدين ان أبقي عندك هذه الليلة ؟

– لا . أعطيني أقراصي . سأزيد الكمية قليلاً ، وسأنام . إنني مرهقة .

قدح ماء ، قرص أخضر ، حبّتان صغيرتان بيضاوان . وتناولتها دومينيك :

– تستطيعين أن تتركيني الآن .

وقبّلتها لورانس وأغلقت خلفها الباب الخارجي . وأخذت تقود سيارتها على مهل . هل ترى دومينيك ستكتب هذه الرسالة أم لا ؟ وكيف تحول دونها ودون ذلك ؟ هل تخبر جيلبير ؟ سيكون ذلك خيانة . وهو لا يستطيع أن يراقب بريد باتريسيا . أم هل تأخذ أمّها فوراً ، منذ الغد ، في رحلة ؟ إنها سترفض ذلك . فما العمل ؟ أيّ اضطراب يستولي عليها ما أن يُطرح هذا السؤال ! إنني لم أقرّر شيئاً بنفسي على الإطلاق : حبي ولا زواجي ؛ ولا عملي ؛ ولا قصتي مع لوسيان : لقد تشكلت وانحلت بالرغم مني. كل ما هناك أن الأشياء تحدث لي . ما العمل ؟ هل أستشير جان – شارل في ذلك ؟

قالت :

– اوه ! يا الهي ! ليتك تعرف في أية حال هي دومينيك ! لقد قال لها جيلبير كل شيء .

ووضع كتابه بعد أن دسّ ورقة بين صفحاته .

– كان هذا متوّقعاً .

– بل كنت آمل أن تصمد خيراً من ذلك . لقد قالت لي منذ شهر كثيراً من الشرّ عن جيلبير !

– إنّ في الأمر كثيراً من الأشياء . فلو أنه كان يقتصر على المال ، لكان عليها أن تغيّر مجرى حياتها .

وتصلّبت لورانس . صحيح أن جان – شارل يكره العواطف المؤثرة ؛ ولكن مع ذلك اية لامبالاة كانت في صوته !

– إن دومينيك لا تحبّ جيلبير لماله .

– ولكنه يملك المال ، ولهذا حسابه .

وأضاف بصوت عدائي :

– بل تأكدي إن لهذا حسابه بالنسبة للجميع .

فلم تجب واتجهت نحو غرفتها . إنه بلا ريب لم يهضم الثمانمئة الف فرنك التي كلفه إياها حادث السيارة . وهو يعتبرني المسؤولة عن ذلك ! ونزعت ثيابها بحركات مفاجئة . وكان الغضب يستولي عليها . إنني لا أريد أن أغضب ، بل يجب أن أنام جيداً . قدح ماء . حركات رياضية ، دوش بارد . لم يكن بوسعي طبعاً أن أعتمد على نصيحة من جان – شارل : عدم التدّخل في شؤون الآخرين ، إطلاقاً . كان باستطاعة شخص واحد أن يساعد لورانس : أبوها ؛ ومع ذلك فانها لا تريد أن تثير شفقته على خيبات دومينيك ، بالرغم من تفهّمه وسماحة صدره . وللمرة الاولى تناولت قرصاً منوّماً قبل أن تلجأ الى السرير . لقد تعرّضت منذ يوم الأحد الى الانفعالات أكثر مما ينبغي : إن كل شيء يحدث دائماً في وقت واحد .

وخشية من أن توقظ لورانس أمّها ، امتنعت عن مخابرتها حتى ساعة الذهاب

الى المكتب . وسألتها :

– كيف حالك ؟ هل نمت ؟

– بصورة رائعة حتى الرابعة صباحاً .

وكان في صوت دومينيك ما يشبه التحدّي الفـَرِح .

– حتى الرابعة فقط ؟

– نعم . لقد استيقظت في الرابعة .

وسادت لحظة صمت ، ثم قذفت دومينيك قولها بلهجة منتصرة :

– لقد كتبت لباتريسيا .

– لا ! أوه ، لا !

وأخذ قلب لورانس يخفق بعنف :

– إنك لم ُترسلي الرسالة ؟

– بلى ، بالبريد المستعجل ، في الساعة الخامسة . ويسليني تسليةً جنونية ان أتصوّر هيئتها ، الفتاة اللطيفة !

– دومينيك ! إن هذا جنون ! يجب ألاّ تقرأ هذه الرسالة . خابريها تلفونياً : ابتهلي اليها ألاّ تقرأ رسالتك !

– تتصوّرين أن أتلفن لها ! لقد فات الأوان على كل حال ، وقد قرأتها .

وصمتت لورانس. وأعادت السماعة، واتجهت تواً الى الحمّام: كان تشنجٌ يمزّق معدتها ، فقاءت الشاي كله الذي كانت قد شربته ؛ ولم يحدث لها ذلك منذ عدة سنوات ، ان تقيء من فرط الانفعال . وبالرغم من خلوّ معدتها ، ظلّت التشنجات تلويها . لم يكن لها خيال ، فهي لا تتمثل باتريسيا ولا لوسيل ولا جيلبير ، ولا أي شيء . ولكنها كانت خائفة . خوفاً مرعباً . وشربت قدح ماء ، وعادت تنهار على ديوان .

وسألتها كاترين :

– هل أنت متعبة يا ماما ؟

– قليلاً . ولكن لا بأس عليّ . إذهبي فاكتبي فروضك .
– انت متعبة أم حزينة ؟ أبسبب صحّة جدّتي ؟
– لماذا تسألين ذلك ؟
– لقد قلت لي منذ حين إنها تتحسّن ، ولكن لم يكن يبدو عليك انـك تصدّقين ذلك .

ورفعت كاترين نحو أمّها وجهاً قلقاً ولكنه واثق . فأمرّت لورانس ذراعها حول قامتها وضمّتها اليها .

– إنها ليست مريضة حقاً . ولكن كان المفروض أن تتزوج مـع جيلبير ، وهو لا يحبّها بعد ، وسيتزوج مع امرأة أخرى . فهي لذلك شقيّة .
– آه !

وفكرت كاترين :
– ماذا نستطيع أن نفعل ؟
– أن نكون لطفاء معها . ليس أكثر .
– ماما ، هل ستصبح جدّتي شرّيرة ؟
– ولماذا ؟
– إن بريجيت تقول إن الناس انما يكونون أشراراً لأنهم أشقياء . ما عـدا النازيين .
– قالت لك هذا ؟

وضمّت لورانس كاترين ضمّاً أشدّ :
– لا . لن تصبح جدّتك شريرة . ولكن كوني حذرة حين ترينها : لا يَبدُ عليك أنك تعرفين انها حزينة .

قالت كاترين :
– إنني لا أريدك أن تكوني أنت حزينة .
– انني أنا سعيدة لأنّ لي طفلة لطيفة جـداً . إذهبي فأنجزي فروضك ولا

تحدّثي لويز في شيء من هذا : فهي أصغر من أن تستوعبه . أتعدينني بذلك ؟
قالت كاترين :
– أعِدُك .

واختطفت قبلة من خدّ أمّها وابتعدت وهي تبتسم . طفلة على غاية الرقة والإخلاص . أمن المحتم أن تصبح امرأة مثلي ، على صدرها أحجار ، وفي رأسها دخانٌ من كبريت ؟

قالت لورانس لنفسها فيما كانت تتناقش مع مونا ولوسيان في مكتب « بوبلانف » حول إطلاق منتوج لينون « فلوريبيل » : « لا نفكّرْ في هذا بعد ، لا أريد أن أفكر في هذا » . الساعة الحادية عشرة والنصف ، لا بدّ أن باتريسيا قد تلقّت الرسالة المستعجلة منذ الثامنة صباحاً .
قال لوسيان :
– هل تسمعين ما أقوله لك ؟
– طبعاً .

إنه متصلّب في حقده ، عدائيّ ، وهي تؤثر ألاّ تراه بعدُ أبداً اذا ظلّ كذلك ، ولكن « فوازان » يرفض أن يتركه . براءة الليمون ، براءة مزيّفة ؛ شفافية : صفاء الينابيع ، ولكن أيضاً قلة رصانة نذلة . ويجب استغلال هذه المتناقضات .

وانتفضت لورانس لجرس التلفون . إنه جيلبير :
– أنصحك بأن تذهبي على الفور لرؤية أمك .

صوت قاطع ، خبيث ؛ وأعاد سماعة التلفون . وطلبت لورانس رقم أمّها . إنها تكره هذه الآلة التي تجعل الناس قريبين الى هذا الحدّ ، بعيدين الى هذا الحدّ ، « كاساندر » هذه التي يحطم نداؤها الثاقب الأيام وينذر بالمآسي . وهناك كان رنين الجرس يرتعش في الصمت : فكأنّ المنزل كان خالياً . ولكن

عبارة جيلبير كانت توحي بان دومينيك لا بدّ أن تكون في البيت . فماذا يعني شخصٌ في منزل فارغ ؟ ميت .

– لقد حصل لأمي حادث . إصابة ، لا أدري ماذا ... فأنا منطلقة اليها .

ولا بدّ أن هيئتها كانت غريبة ، ولم يقل لوسيان ولا مونا شيئاً .

وركضت ، فاستقلّت سيارتها وقادتها أسرع ما تستطيع ؛ وترجّلت من السيارة التي تركتها في مكان ممنوع ، ورقيت الدرج أربع أربع ، من غير أن تملك الصبر على إنزال المصعد . ورنّت ثلاث مرات رنّتين . صمت . وتركت إصبعها مستمرّاً على الزرّ .

– مَنْ هناك ؟

– لورانس .

وانفتح الباب . ولكن دومينيك أولتها ظهرها ؛ وكانت ترتدي ثوبها الأزرق ، ودخلت غرفتها التي كانت ستائرها مُسدلة . وكان يُلاحظ في العتمة إناء مقلوب وزهور خزامى منتثرة وبقعة من الماء على السجادة. وارتمت دومينيك على كرسيّ : كما حدث ذلك اليوم ، مقلوبة الرأس الى خلف ، وعيناها إلى السقف ، وغصّات تنفخ عنقها ذا العروق المتصلبة . وكانت مقدّمة الثوب ممزّقة وأزراره منتزعة :

– لقد صفعني .

واتجهت لورانس الى الحمّام ، ففتحت خزانة الأدوية .

– إنك لم تأخذي حبوباً مهدّئة ؟ أليس كذلك ؟ إذن خذي هذه الحبوب .

فأطاعت دومينيك . وأخذت تتكلم بصوت لا ينتمي الى أحد . لقد دقّ جيلبير بابها في الساعة العاشرة ، وحسبت أنه البوّاب ففتحت الباب . لقد أتت باتريسيا على الفور ترتمي بين ذراعي جيلبير باكية ، وكانت لوسيل تصرخ ، فأغلق الباب خلفه بضربة قدم ، وجعل يلامس شعر باتريسيا بحنان ، وبصوت مهدّيء؛ وهنا في المدخل أهانها وصفعها وأخذها من تلابيبها وجرّها إلىغرفتها. واختنق صوت دومينيك وجرضت بريقها :

– ليس أمامي بعد إلا الموت .

ما الذي حدث بالضبط ؟ كان رأس لورانس يحترق . إنها تتمثل جيلبير في فوضى السرير والثوب الممزق والأزهار المقلوبة ، بيديه الضخمتين الأنيقتين ، وعلى وجهه السمين ذلك الخبث . هل جرؤ ؟ وما الذي كان يمكنه أن يمنعه ؟ واستولى الاشمئزاز على حلق لورانس ، الإشمئزاز مما حدث لدومينيك في تلك اللحظات القليلة ، ومما يحدث الآن . آه ! لقد تطايرت جميع الصور شعاعاً ، ولا سبيل بعدُ الى إصلاحها . وإن لورانس تودُّ أن تتناول هي أيضاً حبوباً مهدّئة ، ولكن لا ، فهي بحاجة الى صفاء ذهنها كله . وقالت :

– أيّ وحش ! إنهم وحوش .

وتمتمت دومينيك :

– أريد أن أموت .

فقالت لورانس :

– كفى ! لا تبقيْ هكذا تبكين ، فهذا هو ما يسرّه كثيراً . إغسلي وجهك ، وخذي دوشاً ، وارتدي ثيابك ولنخرج من هنا .

لقد فهم جيلبير انه لم يكن ثمة إلا طريقة واحدة لإصابة دومينيك في الصميم : هي إذلالها . أتراها ستشفى من ذلك ؟ كم كان يكون الأمر يسيراً لو استطاعت لورانس أن تأخذها بين ذراعيها ، وتلامس شعرها ، كما تفعل مع كاترين . إن ما يمزّقها انما هو هذا النفور الذي يمتزج بشفقتها : كما لو انها كانت تشفق على حرذون مجروح ، من غير أن تعزم على لمسه . انها مشمئزة من جيلبير ، ولكن من أمها أيضاً .

– إنه في هذه اللحظة بالذات يروي كل شيء لباتريسيا ولوسيل .

– ولكن لا . ليس هناك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز في ايذاء امرأة بوحشية .

– إنه فخور بذلك : وهو سيُدلّ بهذا في كل مكان . انني أعرفه ...

– لن يستطيع أن يقدّم مبرراته . لقد أوضحتِ لي هذا بنفسك أمس :

فهو لن يذهب يصيح في كل مكان انه ضاجع أمّ خطيبته !

– يا للقذرة الصغيرة ! لقد أرته رسالتي !

ونظرت لورانس الى أمّها في ذهول :

– ولكنني قلت لك يا دومينيك انه ستريه إياها !

– لم أكن اصدق ذلك . كنت أعتقد انهـــا ستكون مشمئزة وانها ستقطع صلتها به . وهذا ما كان ينبغي أن تفعله ، احترامــاً لأمّها : أن تصمت وتقطع العلاقة . ولكنها تريد فلوس جيلبير .

طوال أعوام عاملت الناس على أنهم عقبات ينبغي مقاومتها ، وقد انتصرت في ذلك ؛ وانتهى بها الأمر الى أن تجهل أن الآخرين موجودون لحسابهم ، وانهم لا يطيعون بالضرورة خططها . عنيدة يجنونها وتمثيلياتها . مقلدة دائماً شخصاً ما لأنها لا تحسن اصطناع تصرّفات تتلاءم والظروف. إنهم يعتبرونها امرأة عنيدة، مالكة زمام أمرها ، فعّالة ...

وردّدت لورانس :

– أرتدي ثيابك . ضعي نظارتك السوداء وسآخذك لنتناول الغـــداء في مكان ما ، في ضواحي باريس ، حيث نكون واثقتين من اننا لن نلتقي أحداً

– لست جائعة .

– سيعود عليك الطعام بالفائدة .

وذهبت دومينيك الى الحمّام . لقد فعل المهدّيء فعـله . وقامت بزينتها في صمت . أما لورانس ، فقد القت الزهور ، ومسحت المـاء . وتلفنت للمكتب . وأصعدت أمّها الى السيارة . وظلت دومينيك صامتة. وكانت النظارة الكبيرة السوداء تبرز صفرة بشرتها .

واختارت لورانس مطعماً يتكوّن كله من الواجهـات الزجاجية ويقوم على مرتفع يشرف على منظر واسع من الضاحية . وكان في داخل القاعــة وليمة . مكان مرتفع الثمن ، ولكنه ليس أنيقاً ، ولم يكن معارف دومينيك يتردّدون عليه . واختارتا طاولة ، وقالت دومينيك :

– يجب أن أخطر سكرتيرتي انني لن أجيء اليوم .

وابتعدت وكتفاها مقوّستان بعض الشيء . وخرجت لورانس الى السطيحة التي تشرف على السهل . في البعيد ، كان يبرز بياض كنيسة « القلب المقدس » ، وكان قرميد سطوح باريس يلتمع تحت سماء كثيفة الزرقة . إنه واحدٌ من هذه الأيام التي ينفذ فيها جذل الربيع من برودة ديسمبر . وكانت ثمة عصافير تغرّد على الغصون العارية . وعلى الاوتوستراد ، في الجانب الأسفل ، كانت السيارات تجري ، ملتمعة . وتجمّدت لورانس ؛ لقد توقف الزمن فجأة . كان ثمة في هذا المنظر المدبّر ، بطرقه وبيوته المتشابهة ، وأراضيه المتناسقة وسياراته المسرعة ، شيءٌ ما يشفّ اذا التقاه المرء انفعل انفعالاً شديداً ينسى معه الهموم والدسائس وكل شيء ، فاذا هو انتظارٌ لا بدء له ولا نهاية . وكان الطير يغنّي ، غير مرئيّ ، مبشراً بالتجدُّد البعيد . وكان ثمة لون ورديّ ينسحب في الأفق ، وقد ظلت لورانس لحظة طويلة مشلولة بهذا الانفعال العجيب . ثم ألفت نفسها من جديد على سطيحة مطعم ، تحسّ البرد ، فعادت الى طاولتها .

وجلست دومينيك الى جانبها ، فمدّت لها لورانس لائحة الطعام .

– ليست لديّ رغبة بشيء .

– اختاري مع ذلك شيئاً .

– اختاري لي .

وارتعش فم دومينيك ، وكان الارهاق بادياً عليها . وقالت بصوت ذليل :

– لا تحدّثي في هذا أحداً . انني لا أريد أن تعرف مارت هذا. ولا جان – شارل . ولا أبوك .

– طبعاً لا .

وجرضت لورانس بريقها ، وأحسّت باندفاع نحو أمّها ؛ انها تتمنى أن تساعدها . ولكن كيف ؟

– ليتك تعرفين ما قاله لي . إنه فظيع . إنه رجلٌ فظيع .

وكانت دمعتان تسيلان وراء النظارة السوداء .

– لا تفكّري به بعد ، امتنعي عن التفكير به .

– لا أستطيع .

– سافري . اتخذي لك عشيقاً . ولينته الماضي .

وطلبت لورانس عجّة وسمكاً وخمراً أبيض. وكانت تعلم ان أمامها ساعات وساعات من الكلام المكرّر اللامجدي . واستسلمت لذلك . ولكن كان لا بدّ لها من أن تترك دومينيك في آخر المطاف . وإذ ذاك ؟

وارتسم على وجه دومينيك ما يشبه الكدر الخفيّ ، ثم قالت :

– أعتقد على أي حال أنني سأفسد عليها قليلاً ليلة العرس ...

قال جان – شارل :

– أودّ أن أجد هدية مدهشة لدوفرين وزوجته .

– يجب أن تبحث عنها في حيّ بابا .

وكان لجان – شارل ميزانية خاصة للهدايا والتعويضات وتكاليف السهرات والاستقبالات والأشياء اللامنتظرة ، وكان يراعيها باهتمام مماثل للميزانيات الأخرى تنظيماً . حين سيقومون بمشترياتهم بعد ظهر هذا اليوم ، ستكون النفقات قد حُدّدت بفرق بضعة آلاف من الفرنكات فقط . عملٌ دقيق. ينبغي ألاّ يبدو بمظهر التقتير ، ولا بمظهر الإسراف ؛ ولا ينبغي للهدية أن تعكس هذا الهمّ من الاعتدال ، وانما فقط همّ أن تروق للمهداة اليه . وألقت لورانس نظرة على الأرقام التي يسجلها زوجها :

– خمسة آلاف فرنك لغويا ، هذا ليس بالكثير .

– إنها لا تخدم عندنا إلاّ منذ ثلاثة أشهر . ولن نعطيها كما لو انها اشتغلت طوال العام .

فصمتت لورانس. ستأخذ عشرة آلاف فرنك من صندوقهما الخاص ؛ إن من المناسب أن تكون لأحدنا مهنة نأخذ منها مكافآت بالخفية من رفيق الحياة . هذا ما يجنّبنا المناقشات . وقد كان من اللامجدي إزعاج جان – شارل : فان

دفتر علامات كاترين لن يرضيه . ومع ذلك فيجب أن تقرّر إطلاعه عليه .

– لقد حملت الطفلتان أمس دفتري علاماتهما .

ومدّت له دفـــتر لويز . الأولى ، الثالثة ، الثانية . وطالعه جان – شارل بعينيه في لامبالاة .

– إن دفتر كاترين أقلّ نجاحاً .

ونظر وقطّب : الثانيــة عشرة بالفرنسية ، التاسعة باللاتينية ، الثامنــة بالرياضيات ، الخامسة عشرة بالتاريخ ، الثالثة بالانكليزية .

– الثانية عشرة بالفرنسية ! لقد كانت دائماً الأولى ! فماذا دهاها ؟

– انها لا تحبُّ استاذها .

– والخامسة عشرة بالتاريخ ، والتاسعة باللاتينية !

لم تكن التعليقات تسوّي شيئاً . « تستطيع أن تكون أحسن من ذلـك . ثرثارة في الصفّ . شاردة . » شاردة : هل ورثت ذلك مني ؟

– هل ذهبت لمقابلة أساتذتها ؟

– رأيت معلمة التاريخ ؛ يبدو على كاترين التعب ، وكأنّهــا في القمر ، أو هي على العكس تنفعل كثيراً وتتباله . غالباً ما تجتاز الطفلات في هـــذه السنّ أزمة ، هكذا قالت لي ؛ هذا بسبب اقتراب سنّ البلوغ ، فلا مجال للقلق أكثر مما ينبغي .

– تبدو لي أزمة خطيرة . انها لا تدرس ، وهي تصرخ في الليل .

– لقد صرخت مرتين .

– مرتين أكثر مما ينبغي . استدعيها ، أودُّ أن أكلمها .

– لا توّبخها . إن علاماتها على كل حال ليست كارثة .

– انك تكتفين بالقليل !

في غرفة الأطفال ، كانت كاترين تساعد لويز في الرسم بالألوان . إنهــا ذات لطف مؤثر مع أختها ، منذ أن بكت الصغرى غيرةً . وفكرت لورانس : لا فائدة ، فان لويز جميلة ، ولطيفة وذكية ، ولكني إنما أفضّل كاترين . ما سبب

انحرافها في الدرس ؟ إن للورانس أفكارها هنا ، ولكنها عازمة على أن تحتفظ بها لنفسها .

– يا حبيبتي ، إن بابا يريد رؤيتك . إنه قلق بسبب علاماتك .

فتبعتها كاترين في صمت ، مطرقة بعض الشيء . ونظر اليها جان – شارل نظرة قاسية :

– اسمعي يا كاترين : إشرحي لي ما يحدث لك . لقد كنت في العام الماضي بين الاوليات الثلاث .

ووضع دفتر العلامات تحت نظرها :

– إنك لا تدرسين .

– بلى .

– الثانية عشرة ، الخامسة عشرة .

ورفعت نحو أبيها وجهاً مندهشاً :

– وماذا يعني ذلك ؟

– لا تكوني رقحة !

وتدخلت لورانس بصوت مرح :

– اذا كنت تريدين أن تصبحي طبيبة ، فيجب أن تدرسي كثيراً .

– آه ، سوف أدرس ؛ إن ذلك يهمّني . أما الآن ، فهم لا يحدثونني أبداً عن أشياء تهمّني .

فقال جان – شارل بصوت حانق :

– التاريخ ، الأدب ... هذا لا يهمّك ؟

إنه يريد ، حين يناقش، أن يكون على حقّ أكثر مما يريد أن يفهم مخاطبه، وإلاّ فإنه يسأل: ما الذي يهمّك إذن؟ ولو فعل لما استطاعت كاترين أن تجيب؛ ولكن لورانس تعرف : إنه هذا العالم حولها ، هذا العالم الذي يخفونه عليها ولكنها تلمحه .

– أهي صديقتك بريجيت التي تجعلك تثرثرين في الصف ؟

– أوه ! بريجيت ، إنها طالبة ممتازة .

وانتعش صوت كاترين :

– إن لها علامات سيئة بالفرنسية لأن المعلمة بلهاء ، ولكنها كانت الأولى باللاتينية والثالثة بالتاريخ .

– يجب أن تحتذي حذوها . إنه يشق علي أن تصبح ابنتي الصغيرة كسولة .

والتمعت الدموع في عيني كاترين ، فلامست لورانس شعرها :

– ستدرس خيراً من الآن في الأشهر الثلاثة القادمة . إنها الآن تريد الاستفادة من العطلة ونسيان المدرسة . إذهبي ، يا حبيبتي ، فالعبي مع لويز .

وخرجت كاترين من الغرفة ، فقال جان – شارل بصوت غاضب :

– إذا كنت تدللينها حين أوبخها ، فلا جدوى من أن أهتم بها .

– إنها شديدة الحساسية .

– حساسة أكثر مما ينبغي . ماذا يجري لها ؟ إنها تبكي ، وتطرح أسئلة ليست من سنها ولا تعمل بعد .

– كنت تقول أنت نفسك إنها في سن طرح الأسئلة .

– فليكن . ولكن هذا التقهقر المدرسي غير طبيعي . إنني أتساءل إذا كان من الخير لها أن تكون لها صديقة أكبر منها سناً ، وفوق ذلك يهودية .

– ماذا تقول ؟

– لا تظني اني مناهض للسامية . ولكن من المعروف أن الأطفال اليهود ذوو نضج مبكر مُقلق بعض الشيء وذوو حساسية متطرفة .

– آه ! تلك شائعات لا أصدقها على الإطلاق . إن بريجيت مبكرة النضج لأن عليها أن تتدبر أمرها وحدها لعدم وجود الأم ، ولأن لها أخاً كبيراً هي معه في صميمية كبيرة ؛ وأنا أجد ان لها تأثيراً ممتازاً على كاترين ؛ إن الصغيرة تنضج وتفكر ، وتغتني . وأنت تعلق أكثر مما ينبغي من الأهمية على النجاح المدرسي ..

– أريد أن تنجح ابنتي في الحياة . فلماذا لا تأخذينها الى عالم نفسي ؟

– آه ! كلا ! تصوّر أنّ على الناس أن يذهبوا لاستشارة عالم نفسي كلما فقد طفل بعض الدرجات في الصفّ !

– إنها تفقد درجات في الصف وتصرخ وهي نائمة . لِمَ لا ؟ لماذا ترفضين رؤية اختصاصي في حالة الاضطرابات الشعورية بينما تأخذين ابنتك الى الطبيب بمجرّد أن تُصابا بالسعال ؟

– إنني لا أحب أبداً هذه الفكرة .

– هذا كلاسيكي . إن الأهل هم تلقائياً يغارون من علماء النفس الذين يهتمّون بأطفالهم . ولكننا من الذكاء بحيث نستطيع أن نتجاوز هذا الموقف . إنك غريبة . فأنت عصرية من بعض الجوانب ، وأنت من جوانب أخرى رجعية ، بكل صراحة ...

– رجعية أم لا ، فأنا أجد كاترين ممتازة كما هي ؛ ولا أريد أن يُفسدوها لي .

– إن عالم النفس لا يفسدها لك . كل ما سيحاوله هو أن يرى ما الذي ليس فيها غير طبيعي .

– غير طبيعي : ماذا يعني هذا ؟ أنا أرى ان الامور ليست طبيعية دائماً لدى الذين تحكم بأنهم طبيعيون . واذا كانت كاترين مهتمّة بشيء آخر غير دروسها ، فهذا لا يعني أن تفكيرها غير طبيعي .

وقد تكلمت لورانس بلهجة عنيفة أدهشتها هي نفسها . كان عليها أن تتبع رَجُلَها في طريقه ، لا تنحرف قيد أنملة ، وكان ممنوعاً عليها النظر ذات اليمين أو اليسار ، وإن لكل سنّ مهماته ، واذا استولى عليك الغضب فتناولي قدح ماء وقومي بحركات رياضية . لقد نجح هذا معي ، نجح تماماً ؛ ولكنهم لن يجبروني على تربية كاترين بالطريقة نفسها . وقالت في قوة :

– انني لن أمنع كاترين من قراءة الكتب التي تروق لها ولا أن ترى الرفاق الذين تحبّهم .

– اعترفي بأنها فقدت كثيراً من توازنها . لقد كان أبوك على حق ، هذه المرة : إن الإعلام شيء رائع ، ولكنه خطرٌ على الأطفال . لا بدّ من اتخاذ

الحيطة ، وربما يجب تجنيبها بعض التأثيرات . إنــه غير مُجدٍ أن تتعلم على الفور أحزان الحياة . سيحين الوقت لذلك فيما بعد .

– تعتقد ذلك ! لن يحين الوقت أبداً ، ولا يأتي شيء في إبّانه .

واستطردت لورانس :

– لقد كانت مونا على حق أن تقول إننا لا نفهم شيئاً . اننا نقرأ كل يوم في الصحف أشياء فظيعة ، ونحن نظلُّ نجهلها .

قال جان – شارل في جفاء :

– لا تعودي الى أزمة الضمير التي عانيتها عام ٦٢ .

فأحست لورانس انها تمتقع : فكأنما صفعها . كانت ترتعش ، ولقــد كانت غاضبة غضباً جنونياً يوم قرأت قصة تلك المرأة التي عُذّبت حتى الموت . وقــد ضمّها جان – شارل اليه ، فاستسلمت لذراعيه بثقة وهو يقول : «هذا فظيـع» ، وظنت يومذاك أنه كان منفعلاً مثلها هو أيضاً . وقد استردّت هدوءها بسببه ، وبذلت جهداً لتطرد هذه الذكرى ، فنجحت في ذلك تقريباً . وبسبب منــــه إجمالاً تجنّبت بعد ذلــك قراءة الصحف . والواقع ان تلك القصة كانت لا تثير اكتراثه ، وانما كان يقول : « هذا فظيـع » ليهدّئها : وها هو الآن يقذف وجهها بالحادث في شيء من الشراسة . أية خيانة ! انه واثق بحقه ، يغضب اذا أزعجنا الصورة التي يتصوّرنا بها فتاة صغيرةً وامرأةً صبيةً نموذجيتين، غير مكترث بما نحن عليه حقاً .

– لا أريد أن تَرِث كاترين ضميرك المطمئنّ !

وضرب جان – شارل الطاولة بشدّة ؛ إنه لم يحتمل قطّ أن يُعانَد .

– إنك أنت التي تطاردينها بوساوسك وشدة حساسيتك .

– أنا ؟ شده حساسيّة ؟

كانت مندهشة بصراحة . كانت لديهـــا حساسية ، ولكن دومينيك ، ثم جان – شارل خنقاها تماماً . وإن مونا تأخذ عليها لامبالاتها ، ويأخذ عليهـــا لوسيان انها لا تملك قلباً .

– نعم ، مثال ذلك راكب الدراجة ذاك ، منذ حين ...

قالت لورانس :

– إذهب عني ، أو أذهب أنا .

فقال جان – شارل وهو ينهض :

– بل أنا : عـلـيّ أن امرّ بمؤسسة « مولود » ، ولكنك لن تسيئي صنعاً برؤية طبيب نفساني من أجلك أنت .

واختلت بنفسها في غرفتها . يجب أن تتناول قدح ماء ، وأن تقوم بحركات رياضية : ولكن لا . بل لقد استسلمت هذه المرة لغضبها ؛ وانطلقت عاصفة في صدرها فهزّت جميع خلاياها ، فاذا هو ألمٌ جسدي ، وإن كان يشعرها بأنها تعيش. وتمثلت نفسها جالسةً على حافة السرير وهي تسمع صوت جان ـ شارل: « انني لا أجد هذا عملاً ذكياً ؛ فليس لنا إلاّ تأمين ضد الغير ... وجميع الناس كانوا سيشهدون لصالحك . » وتحققت كلمع البرق انه لم يكن يمزح . كان يأخذ عليّ ، وما زال يأخذ عليّ أني لم أوفّر عليه ثمانمئة الف فرنك بأن أجازف بقتل انسان . وأغلق باب الخروج ، لقد ذهب . أكان سيفعل ذلك لو كان بدلاً مني؟ إنه على أيّ حال يأخذ عليّ اني لم أفعله .

وظلت وقتاً طويلاً جالسة ، والدم يغلي في رأسها ، مثقلة الرقبة ؛ وكان بودّها أن تبكي ؛ منذ متى نسيت أن تبكي ؟

وكانت اسطوانة تدور في غرفة الطفلتين : أغان انكليزية قديمة ، وكانت لويز ترسم بالألوان ، بينما كانت كاترين تقرأ « رسائل طاحونتي » . وقد رفعت رأسها :

– ماما ، كان بابا غاضباً جداً .

– إنه لا يفهم لماذا تدرسين أقل من قبل .

– وأنت غاضبة كذلك .

– لا . ولكني أريد أن تبذلي جهداً إضافياً .

– إن بابا يغضب غالباً في هذه الأيام .

وصحيح انه كان ثمة منازعات مع فرني ، ثم الحادث : لقد غضب حين أرادت الصغيرتان أن ترويه لهما . وقد لاحظت كاترين مزاجه السيء ، وهي تشعر شعوراً غامضاً بعصبية دومينيك ، وبقلق لورانس . أيكون ذلك هو سبب ما تعانيه من كوابيس ؟ الواقع انها صرخت ثلاث مرات .

– إن لديه هموماً ، فعليه أن يستبدل السيارة ، وهذا ما يكلف غالياً . ثم إنه مسرورٌ أن قد غيّر وضعه في العمل ، ولكن ذلك يطرح مشكلات .

فقالت كاترين بلهجة اقتناع :

– من الحزن أن يكون الانسان شخصاً كبيراً في السنّ .

– ولكن لا ، إن هناك ألواناً من السعادة الكبيرة، مثلاً أن يكون للانسان طفلتان لطيفتان مثلكما .

– إن بابا لا يجدني لطيفة .

– بلى بكل تأكيد . ولو لم يكن يحبّك كثيراً ، لكان عنده سيّان أن تكون علاماتك جيدة أم رديئة .

– أتعتقدين ذلك ؟

– طبعاً .

أيكون جان – شارل على حق ؟ أتراها قد ورثت مني هذا الطبع القلق ؟ إنه لمخيف أن نفكر بأننا نطبع أولادنا لا بشيء إلا بما نحن عليه . لسان ثار عبر القلب . قلق ، تبكيت . إن الأمزجة اليومية ، ومصادفات كلمة ، أو صمت ، جميع هذه العَرَضيات التي ينبغي أن تمحّي من خلفي ، إنما تترك طابعها في هذه الطفلة التي تجترّ والتي سوف تتذكّر ، كما أتذكر ثنيات صوت دومينيك وانعطافاته . اننا لا نستطيع أن نتحمل مسؤولية كل ما نفعله أو لا نفعله . « ماذا تفعلين من أجلهم ؟ » هذه الحسابات المطلوبة فجأة في عالم لا حساب فيه لشيء تقريباً . فكأن ذلك سوء استعمال .

وسألت لويز :

– ماما ، هل تأخذيننا لمشاهدة المزود ؟

– نعم ؛ غداً أو بعد غد .

– هل نستطيع الذهـــاب إلى قداس منتصف الليـل ؟ إن بيارو وريكاه يقولان إن ذلك جميل جداً ، مع الموسيقى والأنوار .

– سنرى .

ما أكثرها الأساطير السهلة التي تهدّيء الأطفال : جنات « فرا انجليكو » ؛ الأيام القادمة الرائعة ؛ التضامن ، الإحسان ، مساعدة البلدان الناميـــة . إنني أرفض بعضها ، واقبل البعض الآخر .

رنّ الجرس : باقة من الورود الحمراء ، مع بطاقة جان – شارل : «بحنان». ونزعت الدبابيس والورقة الملمّعة ، وكانت بها رغبة أن تقذفها في القمامة . إن الباقة هي دائماً شيء آخر غير الزهور : إنها الصداقة والأمل والعرفان والجذل . وورود حمراء : حبّ ملتهب . هذا بالذات غير صحيح . حق ولا نـدم صادق ، إنها على يقين من ذلك ؛ وأنما هو مجرّد إحالةٍ الى المواضعات الزوجية : لا ينبغي أن يكون ثمة سوء تفاهم في أعياد آخر السنة . ووضعت الورود في إناء من البلور. إنه ليس التهاباً شهوانياً للعاطفة ؛ ولكنها جميلة ؛ واذا كانت قـد حُمّلت رسالة مزيفة ، فانها بريئة منها .

ولامست لورانس بشفتيها البراعم المعطرة . ما هو رأيي حقاً في جان – شارل ؟ وما رأيه فيّ؟ إنها تحسّ بان ذلك لا أهمية له إطلاقاً . إننا على أيّ حال مرتبطان مدى الحيـــاة . لماذا جان – شارل لا سواه ؟ هكذا . (إن امرأة أخرى ، مئات من النساء الصبيّات في هـــذه الدقيقة يتساءلن : لمـــاذا هو لا سواه ؟) فمها فعل أو قال ، ومها فعلت أو قالت ، فلن يكون ثمة عقاب . بل من غير المجدي أن نغضب . ليس هناك أيّ عوْن .

ما إن سمعت المفتـاح يدور في القفل حتى ركضت اليه فشكرته ، وتبـادلا قبلة . وكان مشرق الوجه لأن « مونود» عهد اليه في مشروع للمساكن المصنوعة مقدّماً في ضواحي باريس : عملية مضمونة ستحرز ربحاً كبيراً . وتناول غداءه بسرعة (وقد قالت انها أكلت مع الطفلتين . فلا تستطيع أن تأخـــذ شيئاً)

وذهبا في سيارة اجرة لشراء الهدايا . وسارا في شارع فوبور سانت أونوريه ، والجوّ بارد جميل . وكانت الواجهات مضاءة، وكان في الشارع شجرات عيد الميلاد ، وفي الحوانيت ؛ وكان ثمة رجال ونساء مسرعون أو متسكعون ، وفي أيديهم الرزم ، وعلى شفاههم البسمات . يقال إن المتوحّدين هم الذين لا يحبّون الأعياد . لقد حاولت عبثاً أن أكون محوطة ً جداً ، ولكني أنا أيضاً لا أحب الأعياد . كانت أشجار الصنوبر والرزم والبسمات تعكر مزاجها .

وقال جان – شارل :

– أريد أن أقدّم لك هدية جميلة .

– لا تكن مجنوناً . فتلك السيارة التي يجب استبدالها ...

– لا تتكلمي بعدُ عن هذا . إن بي رغبة للقيام بعمل جنونيّ ، وأنا أملك وسائله منذ هذا الصباح .

كانت الواجهات تمرُّ على مهل . وشاحات ، شكلات ، سلاسل ، مجوهرات للمليارديرـ عقود للحلى مع تخاريج من الياقوت ، مشبكات من الجمان الأسود ، أحجار سفير ، زمرّد ، أساور من ذهب ومن الحجر الكريم – وأشياء أكثر تواضعاً ، أحجار من التيرول ، يشم ، وأحجار من الرين ، وفقاقيع زجاجية ترقص فيها على هوى الضوء أشرطة ٌ براقة ، مرآة في قلب شمس من القش المذهّب ، قوارير من الزجاج المقعّر ، أوانٍ من البلور الكثيف لوردةٍ واحدة ، أوعية لبنية اللون بيضاء وزرقاء ، قماقم من البورسلين أو اللاك الصيني ، علب مسحوق من ذهب وأخرى مرصعة بالأحجار ، عطور ، غسول ، مرشات ، صدارات من ريش الطيور ، أنواع من الكشمير ، كنزات شقراء من صوف ومن وبر الجمال ، نضارة البياض المزبد ، زغب الأثواب الداخلية ، بذخ الزينة المعدنية الخ ...

وكانت جميع العيون تلمع طمعاً ، عيون الرجال كعيون النساء .

وكانت لي أيضاً هاتان العينان اللامعتان ؛ كنت مشغوفة بدخول الحوانيت وملامسة الأقمشة الكثيرة بالنظر ، والتسكع في هذه البراري الحريرية المرصعة

بالزهور العجيبة ؛ وفي يـدي كانت رقّة الموهير والانغورا تسيل، ورطوبة الأقشة ، وجمال اللينون ، ودفء المخمل المسكر . ولأنها كانت تحبُّ هذه الجنات ذات الأرض المغطاة بالأقمشة الباذخة، والأشجار المحمّلة بالعقيق ، عرفت أن تتحدث عنها فوراً ، وهي الآن ضحية الشعارات الإعلانيـة التي صنعتها . تشوُّهٌ مهني : فما أن يجذبني ديكور ، أو شيء ، حتى أتساءل لأيّ تأليف للموضوع أستجيب . إنها تشمّ رائحة الحيلة والأكذوبة والخدعة ، وترهقها جميع هذه التصنُّعات ، بل تخنقها على مرّ الأيام. سينتهي بي الأمر الى الانفصال عن كل شيء ... ومع ذلك فقد توقفت عند سترة من جلد الغزال ذات لون غير قابل للتحديد : لون الضباب ، لون الزمن ، لون أثواب الشهادات .

– ما أجملها !

– إشتريها . ولكنها ليست هديتي . فأنا أريد أن أقدّم لك ما هو غير مفيد .

– لا ، لا أريد شراءها .

كانت الرغبة قد زايلتها ؛ فهذه السترة لن يكون لها اللون نفسه ولا المخمل نفسه الذي تنعم به المعاطف الجلدية الناعمة ، والوشاحات البراقة التي تحيط بها في الواجهة ؛ فالواقع ان الطمع إنما ينصبّ على هذا كله عَبر كل شيء من الأشياء المعروضة .

وأشارت الى دكان لآلات التصوير :

– لندخل هنا . فهذا ما سيسرّ كاترين أكثر من أي شيء آخر .

فقال جان – شارل وهو يبدو منشغلاً :

– بكل تأكيد ، فليس وارداً حرمانها من هدية رأس السنة . ولكن اؤكد لك انه يجب اتخاذ الحيطة .

– أعِدُك بأن أفكر في ذلك .

واشتريا آلة سهلة الاستعمال ؛ كان فيها علامة خضراء تشير إلى أن النور مناسب ؛ فـإذا كان رديئاً أصبحت حمراء ؛ فالخطأ محال . ستكون كاترين

مسرورة . ولكن ما أريد أن أعطيه إياها انما هو شيء آخر : الأمان، الجذل ، لذة أن تكون موجودة في العالم. وهذا كله ما كنت أدّعي اني أبيعه حين أطلق منتوجاً جديداً . كذب . وفي الواجهات كانت الأشياء ما تزال تحتفظ بالهالةالتي كانت تحيطها على الصورة ذات الورق البراق . ولكن حين كان المرء يمسكها بيده ، لا يرى بعدُ شيئاً آخر إلا مصباحاً أو مظلة أو آلة تصوير . جامدة ، باردة .

وفي مخازن « مانون ليسكو » كان ثمة كثير من الناس : نساء ، وبعض الرجال والأزواج . وكان هؤلاء من العرسان الجدد : كانوا يتبادلون النظر في حب بينما كان يضع سواراً في معصم زوجته . العيون البرّاقة ، وجان – شارل يعلّق عقداً في عنق لورانس : « هل يروق لك ؟ » عقد ساحر ، متلألىء بسيط ، ولكنه باذخ أكثر مما ينبغي ، ثمين أكثر مما يجب . وانقبضت . لولا خصام هذا الصباح ، ما قدّمه لي جان – شارل . إنه تعويض ، رمز ، بديل . عمّ ؟ عن شيء غير موجود بعد ، بل لعله لم يوجد من قبل قط : علاقة حميمية حارة تجعل جميع الهدايا بلا جدوى .

قال جان – شارل :

– إنه يناسب تماماً .

أتراه لا يُحسّ بيننا ثِقَل الأشياء غير المقولة ؟ لا ثقل الصمت ، بل ثقل الجمل اللامجدية ؛ ألا يُحسّ المسافة والبُعد تحت مجاملة الطقوس ؟

ونزعت الحلية في نوع من الغضب المجنون : كما لو انها كانت تتحرّر من اكذوبة .

– لا ، لست راغبة فيه .

– قلت منذ لحظة انه هو الذي تفضلينه .

– نعم .

وابتسمت بسمة خفيفة :

– ولكن ثمنه غير معقول .

فقال بلهجة مستاءة :

– هذا ما أقرّره أنا . أما اذا كنت لا تحبّينه ، فلنتركه .

وأخذت العقد من جديد : ما جدوى معاكسته ؟ فالأفضل أن ننتهي من الأمر .

– بلى ، إنني أجده رائعاً . ولكني كنت أظنّ ان ثمنه جنونيّ . ولكنّ هذا يعنيك في نهاية الأمر .

– نعم يعنيني .

وحنت رأسها قليلاً ليتمكّن من تعديل العقد : صورة ممتازة لزوجين يحبّ أحدهما الآخر حباً عميقاً بعد عشرة أعوام من الزواج . إنه يشتري الأمن الزوجي ، مباهج البيت ، التفاهم ، الحب ، وعزّة النفس . وتأمّلت نفسها في المرآة :

– كنتَ على حقّ في الإلحاح ، يا حبيبي : فانا مجنونة فرحاً .

كان التقليد احياء سهرة رأس السنة في منزل مارت . وكانت تقول في رضى ومجاملة : « إنه امتياز المرأة في البيت ، وأنا أملك وقتي كله . » وكان هوبير وجان – شارل يتقاسمان النفقات : ولكنّ صعوبات كانت غالباً ما تنهض لأن هوبير بخيل (ولا بدّ من القول إنه لم يكن ينام على الذهب) ولم يكن جان – شارل يريد أن يدفع أكثر من عديله . وقد كان العشاء في السنة الماضية مزرياً تقريباً . أما هذا المساء ، فقد قالت لورانس إن الأمر لا بأس به ، بعد أن فحصت المائدة التي كانت مارت قد نصبتها داخل الصالة وأضفت عليها طابع عيدالميلاد بالشموع وبصنوبرة صغيرة وببعض الغنم وببعض شعر الملائكة والأكر البراقة . وكان أبوهما قد جلب أربع زجاجات من الشمبانيا يحتفظ بها من لدن صديق له ، وجلبت دومينيك كبداً كبيراً تعتبره أكبر كبد في فرنسا كلها . فإذا أضيف الى ذلك لحم البقر المطبوخ ، وسلاطة الأرز ، والمقبّلات ، والفاكهة ، والحلوى وزجاجات الخمر والويسكي ، كان ثمة قدر كبير من الشراب والطعام

يكفي عشرة أشخاص .

وقد كانت دومينيك في الأعوام السابقة تقضي الأعياد مع جيلبير . أما هذا المساء ، فإن لورانس هي التي خطر لها أن تدعوها . وقد سألت أباها :

– هل يزعجك كثيراً أن ندعوها ؟ إنها متوحّدة جداً ، شقية جداً .

– هذا عندي سواء تماماً .

كان الجميع يعرفون أمر القطيعة ، ولكن لم يكن فيهم من يعرف تفاصيلها . وكان ثمة دوفرين وزوجته اللذان اصطحبهما جان – شارل ، وهنري وتيريز فوينو ، وهما صديقان لهوبير . وقد ظهرت دومينيك بمظهر الجدّة الشابة في « العيد العائلي » فكانت ترتدي ثوباً بسيطاً من الجرسيه بلون العسل ، ويبدو شعرها أبيض أكثر منه أشقر . وكانت تبتسم في رقة قريبة من الخجل وتتكلم بهدوء ؛ وكانت قد أفرطت في استعمال المهدّئات مما أضفى عليها هذا المظهر من الغفلة والجمود . وكان وجهها يسترخي ما أن تكون وحدها .

واقتربت منها لورانس :

– كيف قضيت الإسبوع ؟

– لا بأس ؛ لقد نمت بما فيه الكفاية .

بسمة آلية : فكأنها تشدّ على زاويتي شفتيها بخيطين صغيرين ، ثم ترخي الخيطين .

– لقد قررت أن أبيع منزل فوفرول ، وأنا لا أستطيع أن أقوم على صيانة مثل هذا الملك وحدي .

– هذا ما يؤسف له . ليت بالإمكان إيجاد وسيلة لتدبّر ذلك ...

– ما الفائدة ؟ مَنْ تريدينني أن أستقبل ، الآن ؟ كان الأشخاص الهامّون من أمثال هودان وتيريون وفردوليه انما يأتون من أجل جيلبير .

– اوه ! وسيأتون من أجلك .

– أتظنين ذلك؟ إنك ما زلت تجهلين الحياة . إن المرأة ليست – اجتماعياً – شيئاً بلا رجل .

– هذا لا ينطبق عليك . إنّ لك اسمك ، ومركزك .

فهزّت دومينيك رأسها :

– حتى ولو كان للمرأة اسم ، فإنهـــا من غير رجل نصف فاشلة ، نوعٌ من الحطام ... إنني أتصوّر جيداً كيف ينظر إليّ الناس : صدّقيني ان الأمر ليس كما كان من قبل .

كانت الوحدة الآن فكرة مسيطرة على دومينيك .

كانت اسطوانة تدور ، كانت تيريز ترقص مع هوبير ، ومارت مع فوينو ، وجان – شارل مع جيزيل ، وقد دعا دوفرين لورانس . وكانوا جميعاً يرقصون برداءة . وقال دوفرين :

– إنك باهرة هذا المساء .

ولمحت نفسها في مرآة . كانت تضع فرواً أسود وهذا العقد الذي لا تحبّه . على انه كان جميلاً ، وقد قدّمه جان – شارل إرضاءً لهـــا . وإنها لتجد نفسها ذات شخصية . وكان دوفرين قد بدأ يسرف في الشرب ، وكان صوتــــه أشد عجلة من المعتاد . فتى لطيف ، رفيق طيب لجان – شارل (بالرغم من انهـما في الواقع لا يحبّ أحدهما الآخر الى هذا الحدّ ، بل الأحرى انهما متحاسدان) ولكنها لا تكنّ له ودّاً خاصاً .

وغيّروا الاسطوانة ، فغيّرت كل منهنّ الفارس . وسألها جان – شارل :

– سيدتي العزيزة ، هل تمنحينني هذه الرقصة ؟

– بكل رضى .

قال جان – شارل :

– عجيبٌ أن نراهما معاً من جديد !

وتبعت لورانس نظره ، فرأت أباها ودومينيك جالسين أحدهما تجاه الآخر يتحدّثان ببشاشة . أجل ، كان ذلك عجيباً .

وقال جان – شارل :

– يبدو انها قد انتصرت على همّها .

– انها تتخم نفسها بالمهدّئات وعقاقير مقاومة المماكسات .

وقال جان ـ شارل :

– عليهما في الحقيقة أن يستعيدا حياتهما المشتركة .

– مَنْ تعني ؟

– امك وأبوك .

– أنت مجنون !

– ولماذا ؟

– إن لكل منهما مزاجاً معاكساً تماماً لمزاج الآخر . فهي امرأة اجتماعية ، وهو رجل متوحّد .

– إنهما كليهما متوحّدان .

– ليس لهذا علاقة بالأمر .

وأوقفت مارت الاسطوانة :

– سيأذن منتصف الليل بعد ربع ساعة .

وتناول هوبير زجاجة شمبانيا :

– إنني أعرف طريقة ممتازة لفتح زجاجة الشمبانيا . وقد بيعت منذ أيام في بورصة الأفكار .

قال دوفرين :

– رأيت ذلك . أما أنا ، فعندي طريقة أبرع .

– هات نرى ...

وفجّر كلٌّ منهما سدادة زجاجة من غير أن يُريق قطرة ، وبدا عليهما الفخر الشديد (بالرغم من أن كلا منهما كان يؤثر لو أن الآخر قد فشل بعمله) وملئت الأقداح .

– عام سعيد !

– عام سعيد .

وتصادمت الكؤوس ، وتبودلت القبلات والضحكات ، وتحت النوافذ

انفجرت حفلة الزمامير .

قالت لورانس :

– أية ضجة مريعة !

فقال أبوها :

– لقد أعطوا خمس دقائق ، كما لو انهم أطفال يحتاجون الى الصراخ بين ساعتين من الدروس . في حين انهم بالغون متحضّرون .

قال هوبير :

– لا بدّ من تسجيل الحادث .

وفتحوا الزجاجتين الأخريين ، ثم حملوا الرزم المركومة خلف احدى الأرائك ، فقُطعت الخيطان المذهّبة ، وحُلّت الأشرطة ، وفتحت الأوراق ذات الألوان البراقة المطبوعة بالنجوم وبشجر الصنوبر ، بينما كان كلٌّ منهم يترصّد الآخرين بطرف عينه ، ليعرف من هو الرابح في هذا الـ « بوتلاتش[1] » .

ولاحظت لورانس : « نحن الرابحان » . لقد وجدا لدوفرين ساعةً تسجّل الوقت في فرنسا وفي جميع بلاد العالم ؛ ولأبيها جهاز تلفون رائع ، نسخة عن القديم ، ينسجم تماماً مع مصابيح البترول القديمة . أما هداياهما الأخرى فكانت أقل طرافة ، ولكنها لطيفة . أما دوفرين فقد قدّم لجان ـ شارل قلباً أبدياً يخفق سبعين خفقة في الدقيقة ، وللورانس آلة غنائية صغيرة لن تجرؤ أبداً على تركيبها على مقود سيارتها اذا كانت حقاً تقلد غناء البلبل . ولكن جان ـ شارل كان مسحوراً : إن الأشياء التي لا تنفع ولا تروي شيئاً هي المفضّلة عنده . وقد تلقت أيضاً قفازات وعطوراً ومناديل ، وكان كلٌّ منهم ينتشي ، ويصرخ معجباً ، ويشكر .

وقالت مارت :

– خذوا صحونكم فاجلسوا واخدموا أنفسكم .

ضجيج ، وأصوات صحون ، هذا لذيذ ، ضعوا كمية أكبر ، وسمعت لورانس

---

(١) عيد ديني لهنود أميركا يجري فيه تبادل الهدايا (هـ. م) .

صوت أبيها :

– ألم تكن تعرف هذا ؟ يجب تمتيق الخمر بعد فضّ زجاجته، لا قبل ذلك.

– إنه عظيم .

– إن جان ـ شارل هو الذي اختاره .

– نعم ، أعرف بائعاً للخمور ممتازاً .

وكان بوسع جان ـ شارل أن يجد ممتازاً ذلك الخمر الذي له مذاق السدادة ، ولكنه كان يتكلّف دور العارف ، كالآخرين . وأفرغت قدح شمبانيا . وكانوا يضحكون ويمزحون ، ولم تكن هي تجد مزاحهم طريفاً . في العام الماضي ... لم تُصِب كذلك تسليةً أكبر ، ولكنها تظاهرت بذلك ؛ أما هذا العام ، فليست بها رغبةٌ لأن تقسر نفسها ، فذلك مُتعبٌ في نهاية الأمر. ثم انها في العام الماضي كانت تفكر بلوسيان : نوع من الحجّة . كانت تفكر بأن ثمة واحداً كانت تودّ لو تكون معه ؛ ولقد كانت الحسرة حباً رومانتيكياً صغيراً كان يدفئها . أما الآن ، فليس بعدُ من حسرة . لماذا تراها قد عزمت على افراغ حياتها ، وتوفير وقتها وقواها وقلبها ، في حين انها لم تكن تعرف جيداً ماذا تفعل بوقتها وقواها وقلبها ؟ أهي حياةٌ مليئة أكثر مما ينبغي ؟ فارغة أكثر مما ينبغي ؟ مليئة بأشياء فارغة ، أي اختلاط !

قال فوينو :

– ومع ذلك ، افحصوا جانب الحياة في عدد من القرنبيات وفي برج الجوزاء تجدوا في داخل كل فريق مشابهات مقلقة .

فقال دوفرين :

– ليس من المستبعد ، علمياً ، أن تؤثر الكواكب على مصائرنا .

– كفى ! كفى ! الحقيقة أن هذه الفترة هي وضعيةٌ بشكل مسطح بحيث انّ الناس محتاجون ، على سبيل التعويض ، إلى ما هو خياليّ عجيب . إننا نصنع آلات الكترونية ونقرأ مجلة « بلانيت » .

وابتهجت لورانس لحماسة أبيها : لقد ظلّ شابّاً ، بل أكثرهم شباباً .

وقالت مارت :

– هذا صحيح . أما أنا فأفضّل قراءة الإنجيل واؤمن بأسرار الدين .

فقالت السيدة فورينو :

– وحتى في الدين يضيع معنى السرّ . إنني أجد من المفجع المحزن إقامة القداس بالفرنسية ، وفضلاً عن ذلك على أنغام الموسيقى العصرية .

فقالت مارت بصوتها الملهم :

– آه ! لست موافقة . فإن على الكنيسة أن تعايش عصرها .

– الى حدّ ما .

وابتعدتا تتابعان بصوت منخفض مناقشة ينبغي ألاّ تسمعها الآذان غير التقيّة .

وسألت جيزيل دوفرين :

– هل رأيتم أمس في التلفزيون برنامج « أحداث السنة الماضية » ؟

فقالت لورانس :

– نعم ؛ يبدو اننا عشنا سنة عجيبة : انني لم أحسّ بها .

قال دوفرين :

– إن السنوات كلها كذلك ، ولكننا لا نحسّ بها .

إننا نرى « الأحداث » وصور « ماتش » فننساها تدريجياً . وحين نجدها كلها معاً ، نصاب ببعض الدهشة . جثث دامية للبيض والسود ، أوتوكارات منقلبة في الأنهر والمجاري ، خمسة وعشرون طفلاً مقتولون. وآخرون مقطوعون الى قسمين ، حرائق ، بقايا طائرات محطمة ، مئة وعشرة ركاب مقتولون على الفور ، عواصف وفيضانات ، بلاد برمّتها يصيبها الخراب ، قرى تحترق ، اضطرابات عرقية ، حروب محلية ، صفوف من اللاجئين المشرّدين . إنّ ذلك يثير الحزن الى حدّ الرغبة في الضحك . ويجب القول إن المرء يشهد جميع هذه الكوارث وهو مقيم على غاية الراحة في إطاره العائلي . وليس صحيحاً ان العالم

ينفذ اليه : فإنه لا يرى إلا صوراً مؤطّرة على الشاشة الصغيرة وليس لها وزنها من الحقيقة .

وقالت لورانس :

– إنني أتساءل عما عساه يكون رأيهم بعد عشرين عاماً في فيلم عن فرنسا بعد عشرين عاماً .

فقال جان – شارل :

– سيثير الابتسام من بعض نواحيه ، كجميع ألوان التنبؤات . ولكنه إجمالاً صحيح .

لقد عُرض عليهم ، على سبيل المفارقة مع هذه الكوارث، برنامج عن فرنسا بعد عشرين عاماً . انتصار التخطيط المدني : ففي كل مكان مدنٌ مشرقة تشبه ، في ارتفاعها على مئة وعشرين متراً ، خلايا نحل ، أو قرايا نمل ، ولكنها تقطر شمساً . أوتوسترادات، مختبرات، معاهد جامعية.وقد أوضح المعلّق أن النقيصة الوحيدة هي أن الفرنسيين سينهارون تحت عبء بحبوحة كبيرة حتى ليوشكوا أن يفقدوا كل طاقة . وعرضت ، بشكلٍ بطيء ، صور شبّان لا مبالين لا يبذلون حتى جهد وضع قدمٍ أمام الأخرى . وسمعت لورانس صوت أبيها :

– إننا نلاحظ إجمالاً بعد خمسة أعوام أو حتى عام واحد أن المصمّمين والمتنبئين الآخرين كانوا على خطأ كامل .

فنظر اليه جان – شارل نظرة ترفع أصابه بعض التعب :

– أنت لا تعرف بلا شك أن التنبؤ بالمستقبل هو الآن بسبيل أن يصبح علماً صحيحاً ؟ ألم تسمع قط عما يسمّى بـ « راند كوربورايشن » ؟

– لا .

– إنها منظمة أميركية مُزوّدة بوسائل هائلة . وفيها يُسأل الخصائيون في كل نظام ويُعمل حساب المعدّلات المتوسّطة . وهناك الوف من العلماء ، في العالم كله ، يشاركون في هذا العمل .

واغتاظت لورانس للهجته المتعالية .

– على أي حال ، حين يُروى لنا أن الفرنسيين لن يفتقروا الى شيء . فلا حاجة لاستشارة ألوف الاخصائيين لمعرفة أن الأغلبية ستكون بعد عشرين عاماً ما تزال محتاجة الى الحمّامات ما داموا لا يبنون في معظم البيوت الحديثة الا قاعات للماء .

وكان هذا الأمر قد أثار استنكارها حين عرض عليها جان – شارل مشروعه للمساكن المصنوعة سلفاً .

وسألت تيريز فوينو .

– ولماذا لا يكون هناك حمّامات ؟

فقال جان – شارل :

– ان الأنابيب تكلف غالياً جداً ، وهذا ما يرفع ثمن المساكن .

– واذا خُفّضت الأرباح ؟

فقال فوينو :

– ولكن اذا خُفضت أكثر مما ينبغي فلن يكون هناك من يهتم بعد بالبناء يا عزيزتي .

ونظرت اليه زوجته في غير ما ودّ . أربعة أزواج شبّان : ومَنْ يحب مَن؟ لماذا يُحَب هوبير ، أو دوفرين ، لماذا يُحَبُ أيٌّ كان ، بعد أن تنقضي الشعلة الجنسية الأولى ؟

وأفرغت لورانس قدحيْ شمبانيا ، وأوضح دوفرين أنه من الصعب ، في قضايا الأرض ، خطُّ حدٍّ بين الاختلاس والتجارة : فالمرء مضطر الى اختراق الشرعية .

قال هوبير :

– إنّ ما تقوله هنا مُقلق جداً .

وبدا منزعجاً حقاً . وتبادلت لورانس مع أبيها بسمةً عابثة . وقال :

– انني لا أستطيع أن أصدق ذلك . فاذا حرص المرء على أن يظلّ شريفاً ، فلا شك ان الوسائل متوفرة لذلك .

– شريطة أن يقوم بمهنة أخرى .

ووضعت مارت اسطوانة أخرى ، فعادوا الى الرقص ؛ وحاولت لورانس أن تعلم هوبير رقصة « الجرك »، فبذل جهداً، ولهث ، وكان الآخرون ينظرون اليهما في سخرية ؛ وأوقفت الدرس فجأة واقتربت من أبيها الذي كان ينـــاقش دوفرين وزوجته .

– ليس في فمك إلا كلمة « باطل الطرز » . الرواية الكلاسيكية باطـــلة الطرز . النزعة الانسانية باطلة الطرز . ولكني حين أدافع عن بلزاك وعن النزعة الانسانية فربما كنت على طرز الغد . إنـــك الآن تبصق على الفن التجريدي . وإذن فقد كنت متقدّماً عليك منذ عشرة أعوام حين كنت أرفض إقرار ذلك. الحقيقة أن هناك شيئاً آخر غير الطرز : هناك قيم ، هناك حقائق .

ولقد فكرت غالباً بما قاله هنا : صحيح اني لم أفكر فيه بهذه الكلمات ، أما وانها قد قيلت الآن ، فهي تعتبرها كلماتها . قيمٌ وحقائق تصمد للطـُرز ، انهـا تؤمن بها . ولكن ما هي بالضبط ؟

إن الفنّ التجريدي لا يُباع بعد ؛ ولكن التشكيلي كذلك ، انها أزمـــة الرسم في الحقيقة ، وقد حصل فيها تضخـّم ، كلام مكرور. وضجرت لورانس. وفكرت : ان بي رغبةً أن أستشيرهم في أمر : إنك تملك تأميناً ضد الغـــير ، ويرتمي راكب دراجـــة تحت عجلاتك ؛ فهل تقتل راكب الدراجـــة أم تحطم سيارتك ؟ من ذا الذي يختار في صدق واخلاص أن يدفع ثمانمئـــة الف فرنك من أجل انقاذ حياة مجهول ؟ بابا ، بالطبع . ومارت ؟ إن عندي شكوكاً بشأن موقفها ؛ وهي على أيّ حـــال ليست إلا آلة بين يدي الربّ : فلئن قرّر أن يستردّ اليه الفتى المسكين ... والآخرون ؟ إذا كان ردّ فعلهم ضرورة تفـادي الشابّ ، فأنا على ثقة من أنهم بعد ذلك سيندمون على هذا . « إن جان ـ شارل لم يكن ليمزح . » كم مرة ردّدت هـــذه الجملة في هذا الاسبوع ؟ انها مـــا تزال تردّدها . أأكون أنا غير الطبيعية ؟ قلقة ، مأزومة : ما الذي أملكه ممـــا لا يملكون ؟ انني لا أبالي براكب الدراجة ذلك الأحمر ؛ وقد كان يكون كريهاً لي

أن أسحقه . إنه تأثير بابا . فلا شيء في نظره يساوي حياة بشرية ، حتى ولو كان يرى البشر يستدعون الرثاء . وليس للمال قيمة عنده . أما أنا ، فله قيمة عندي ؛ ولكن أقلّ مع ذلك من قيمته لديهم جميعاً . وأرهفت أذنها لأن أباها كان هو الذي يتكلم : إنه هذه الليلة أقل صمتاً منه في السنوات السابقة :

ـ مركّب الخصاء! إن هذا لا يشرح بعدُ شيئاً لفرط ما شرح كل شيء. . .

إنني أتصوّر طبيباً نفسياً أقبل يساعد محكوماً بالإعدام صبيحة يوم التنفيذ فوجده يبكي ؛ فهو سيقول له : أيّ مركّب للخصاء هذا الذي تعانيه !

وضحكوا ، ثم تابعوا نقاشهم ، فقال أبوها :

ـ هل تبحثين عن فكرة ؟ لأي نتاج جديد ؟

وابتسم للورانس :

ـ لا ، بل كنت أحلم . إن قصصهم المالية تضجرني .

ـ انني أفهمك . هم يعتقدون بصراحة ان المال هو الذي يصنع السعادة .

ـ لاحظ ؛ إنّ ذلك يُساعد .

ـ أنا غير واثق حتى من هذا .

وجلس إلى قربها :

ـ انني لا أراك بعد .

ـ لقد انشغلت طويلاً بدومينيك .

ـ إنها أقلّ حماسة من السابق .

ـ بسبب الانهيار العصبي .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ؟

ـ كيف حالك ؟

ـ إن مرحلة الأعياد مُتعبة .

ـ انك لا تعرفين ما فكرت فيه : لا بدّ أن نقوم برحلة قصيرة نحن الاثنين.

ـ نحن الاثنين ؟

حلمٌ قـديم لم يحقـّق قطّ ؛ كانت في الماضي أصغر سناً من أن تقوم بـه ، ثم جاء جان ـ شارل والطفلتان .

– إن عندي مأذونية في شباط وأودّ أن أستغلـّها لرؤية اليونان ثانية . ألا تستطيعين أن تتدبّري أمرك لتصحبيني ؟

كانت الفرحـة في نفسها كسهم ناريّ . إن من اليسير ، في شباط ، الحصول على خمسة عشر يوماً من العطلة ، وإن عندي مالاً في حسابي . ولكن هل يحدث يوماً أن يتحقق حلمٌ ما ؟

– اذا كانت الطفلتان على ما يرام ، وكل شيء على ما يرام ، ربما كان بامكاني أن أتدبّر الأمر . ولكن هذا يبدو لي أجمل من أن يمكن تحقيقه ...

– حاولي ذلك !

– بكل تأكيد ، سأحاول .

خمسة عشر يوماً . سيتاح لي الوقت اخـيراً لطرح الاسئلة ، والحصول على الأجوبة المعلـّقة منذ سنوات. وسأعرف مذاق حياته . وسأقف على السرّ الذي يجعله مختلفاً هذا الاختلاف عن الجميع وعنّي انا نفسي ، قادراً على بعث هـــذا الحبّ الذي لا أكنـّه لسواه .

– سأبذل كل شيء لتحقيق ذلك . ولكن انت ، لن تغيّر رأيك ؟

فقال في جلالة ، كما كان يقول وهي صغيرة :

– اقسم بالصليب الخشبي ، وبالصليب الحديدي اني اذا كذبت فلأذهب الى جهنّم !

الفصل الرابع

انني أتذكـّر فيلماً لبونويل لم يحبّه أحدٌ منا . وهو مع ذلك يستـولي عليّ منذ حين . كان ثمة أشخاص محجوزون في دائرة سحرية يروون بالاتفاق لحظةً من ماضيهم ؛ كانوا يَصِلون خيط الزمن ويتجنّبون الفخّ الذي سقطـوا فيه من غير ان يعرفوا . (صحيح انهم فيما بعد استعـــادوا وعيهم بذلك) وأودّ أنا ايضاً أن اعود الى الماضي ، وأحبط الشَرَك ، وانجح فيما فاتني . ما الذي فاتني؟ حتى هذا لا أعرفه . ليس لديّ كلام للشكوى او للأسف . ولكن هذه العقدة في حلقي تمنعني من الطعام .

لنبدأ من جديد . إنّ لديّ الوقت كله . وأسدلت الستائر ، ودخلت السرير وأغمضت عينيّ . سأراجع هذه الرحلة صورة صورة وكلمة كلمة .

انفجار الفرح ذاك حين سألني : « هل تأتين معي الى اليـونان ؟ » وكنت مترددة رغم كل شيء . ودفعني جـان – شارل . كان يجدني كئيبة . ثم انني كنت قد قبلت آخر الأمر ان تذهب كاترين لرؤية عالم نفسيّ : وكان يعتقد أن غيابي سيسهّل علاقتهما .

كان بابا يقول : « الذهاب الى اثينا في طائرة كارافيـل هو رغم كل شيء مؤسف » . اما انا فأحب الطائرات النفاثة . إن الطائرة تنقضّ بوحشية نحو السماء ، واني اسمعها تفجـّر جدران سجني : حياتي الضيقة المحاَصرة بملايين اخرى من الحيوات والتي اجهل منها كل شيء . إن البنايات الشاهقة والبيوت الصغيرة تنمحي ، وانا أحلـّق فوق جميع الحواجز ، هاربة من الثقـل ؛ وفوق رأسي ينبسط المدى الأزرق الى ما لا حدّ له ، وتحت قدميّ تمتدّ المشاهد البيضـاء التي تبهرني والتي لا وجود لها . انني في مكان آخر : في لا مكان وفي كل مكان .

وأخذ أبي يحدّثني عمّا سيريني إياه ، وعما سنكتشفه معاً . وكنت افكر : « بل انت الذي اريد ان اكتشف » .

هبوط . عذوبة الهواء ، رائحة البنزين ممتزجة برائحة البحر والصنوبر ؛ السماء الصافية ، والتلال البعيدة التي تُسمّى احداها « هيات » – نحل يحني جنيه فوق ارض بنفسجية – وكان بابا يترجم الاحرف المكتوبة في أعالي البنايات : المدخل ، المخرج ، البريد . وكنت احبّ ان اجد امام هذه الأبجدية سرّ اللغة الطفولي الذي منه كان يأتيني في الماضي معنى الكلمات والأشياء . وكان يقول لي على الأوتوستراد : « لا تنظري » (كان خائباً بعض الخيبة ان تستبدل طريق شبابها المتصدّعة القديمة) « لا تنظري : إن جمال معبدٍ ما مرتبط بالموقع ؛ فيجب رؤيته على بعد معيّن ، لا على بُعد آخر ، تقديراً لانسجامه . ليست القضية شبيهة بقضية الكاتدرائيات التي هي على البعد مؤثّرة – بل ربما احياناً اكثر تأثيراً – مثلها على القرب » وكانت هذه الاحتياطات تعطّفني . والواقع ان « البارتينون » كان يشبه ، وهو منتصب على رابيته ، تلك النسخ من الصور المزيّفة الرخام التي تباع في مخازن الهدايا التذكارية . لم تكن له أية شخصية . ولكن هذا كان عندي سواء . إن ما كان يعنيني هو ان انطلق الى جانب بابا في السيارة البرتقالية الرمادية – تلك السيارات اليونانية العمومية التي كانت لها الوان غريبة من شراب الكشمش الأسود او البوظة بالليمون – وأمامنا عشرون يوماً . وكنت ادخل غرفة فندق فارتب ثيابي من غير أن يكون لديّ شعورٌ باني امثل دور سائح في فيلم دعائي : إن كل ما كان يحدث لي كان صحيحاً . وفي الساحة التي تشبه سطيحة مقهى واسعة ، طلب لي بابا شراباً بالكرز ، بارداً ، خفيفاً ، مزّاً بعض الشيء ، ذا مذاق طفولي لذيذ . وعرفت ما كانت تعنيه تلك الكلمة التي تُقرأ في الكتب : السعادة . كنت قد عرفت الواناً من المرح والبهجة والانتصارات الصغيرة والحنان ؛ اما هذا التناغم بين سماء زرقاء ومذاق فاكهيّ ، وبين الماضي والحاضر المجتمعين في وجه أثير ، وتلك الطمأنينة فيّ ، انما كنت أجهله – إلا عبر ذكريات قديمة جداً . السعادة : كأنما

هي حجة تمنحها الحيـــاة لنفسها . كانت تسربلني فيما كنا نأكل لحم خروف مشوياً في حانة . وكنا نلمح جدار الاكروبول ساجاً في ضوء برتقالي ، وكان بابا يقول إن ذلك كان تدنيساً للقدسيات ! أما انا ، فكان كل شيء يبدو لي جميلاً . وقد احببت الطعم الصيدلي للخمر المُصَمَّغ . كان بابا يقول باسماً : « انت رفيقة السفر النموذجية . وفي اليوم التـالي كان يبتسم على الأكروبول لأني كنت اصغي اليـــه بحماسة فيما كان يشرح : أعلى الافريز ، الطنف ، النقوش ، زخـارف السقوف ، اعلى تاج العمود ، النتوءات ؛ وكان يلفت انتباهي الى التقويس الخفيف الذي كان يحدّ من قسوة الخطوط الافقية ، وميل الاعمدة العموديـة ، وجلبتها ودقة النِسَب . وكان ثمة بعض البرد ، وكانت الريح تصفر تحت سماء صافية . وكنت ارى من بعيـــد ، الروابي ، والبحر وبيوتاً صغيرة جافـة بلون الخبز الرمادي ، وكان صوت بابا يسيل عليّ ، كنت في حالة رضى كامل .

وكان يقول : « إن بامكاننا أن نأخذ على الغرب كثيراً من الاشياء . لقـد ارتكبنا اخطاء عظيمة . ولكن الانسان مع ذلك قد حقق فيه نفسه وعبّر عن نفسه بطريقة لم يكن لها مثيل » .

استأجرنا سيارة ؛ وكنا نزور الضواحي ، وكنا ، كل يوم ، قبـــل مغيب الشمس ، نرقى الى الأكروبول او الى البينكس او الى ليكابت . وكان بابا يرفض الذهاب الى المدينة الحديثة . وكان يقول لي : « ليس هناك ما يُرى فيهـــا . » وفي المساء كان يأخذني ، بناء على نصيحة صديق قديم ، الى حانة صغيرة نموذجية : مغارة على شاطيء البحر مزينة بشباك الصيد والصدف . « إنها أدعى للتسلية من المطاعم الكبيرة التي تحبها امك » . أما انا فكنت اعتبرهـا شركاً للسواح كالاشراك الاخرى . فبدلاً من الأناقة والبذخ ، كانوا يبيعون فيها اللون المحلي وشعوراً خفياً بالتفوق على معتادي الفنادق الفخمة (لو طُلب موضوع دعـائي مناسب لكان : كن « مختلفـاً » ؛ او مكان مختلف .) وكان بابا يتبادل بعض الكلمات باللاتينيـة مع صاحب الحانة الذي كان يُدخلنـــا ، كما يُدخل جميع الزبائن ، - ولكن كلا منهم كان يحس بانه ذو امتياز - الى المطبخ ، ويرفع غطاء

القدور ؛ لقد كانوا يضعون الطعام بعناية كبيرة . وكنت آكل بشهية وبغير اكتراث ...

صوت مارت :

– لورانس ! يجب ان تأكلي شيئاً ما .

– انني نائمة ، فدعيني .

– حساء على الاقل . سأعدّ لك حساء .

لقد ازعجتني . اين كنت من رواية رحلتي ؟ طريق دلف . كنت احب المنظر الخشن الأبيض ، ونَفَسَ الريح الثاقب على البحر الصيفي ؛ ولكني لم أكن ارى شيئاً آخر الا الحجارة والماء ، عمياء عن كل هذه الأشياء التي كان ابي يُريني إيّاها . (عيناها ، عينا كاترين : رؤى مختلفة ولكنها ملوّنة ، مؤثرة ؛ وانا الى جانبها ، عمياء) كان يقول لي : « انظري ، هذا هو المكان الذي قتل فيه اوديب لايوس . لقد حدث هذا ، أمس ، وهذه الحكاية كانت تعنيه . مغارة « بيتي » ، الساحة ، المعابد ؛ كان يشرح لي كل حجر ، وكنت أصغي وابذل الجهد : عبثاً ؛ كان الماضي يظل ميتاً . وقد أتعبني قليلاً أن أندهش ، وأعجب . « الاورريج » : « إنه يحدث هزّة ، أليس كذلك ؟ »
– « نعم ، إنه رائع ! » وكنت ادرك ما عسى ان يجد الناس لهذا الرجل الطويل من البرونز الأخضر ؛ اما الهزّة ، فلم أكن لأحسّها . كنت اشعر من ذلك بالاستياء ، بل حق بالندم . ولحظاتي المفضّلة كانت تلك التي نقضيها جالسين في حانة صغيرة نتحدث ونشرب « الأوزو » . وكان يحدّثني عن رحلاته السابقة : وكم كان يودّ لو تصحبه فيها دومينيك ، ونحن ايضاً بمجرّد أن نكبر . « تصوّري انها رأت البرمود واميركا ، ولكن لا اليونان ولا ايطاليا! على أيّ حال ، ارى أنها تغيرت الى أفضل . ربما كان ذلك بسبب هذه الضربة القاسية ، لا ادري . انها اكثر انفتاحاً ، واوفر نضجاً ، واشد عذوبة وتبصراً » فلم أخالف رأيه ، انني لم اكن اريد ان احرم امي المسكينة من فضلات الصداقة التي كان يوليها إياها .

أمن « دلف » كان ينبغي الانطلاق للعودة الى الزمن القهقرى ؟ كنا جالسين في مقهى مشرف على الوادي ؛ وكنا نحدس عبر الفتحات الزجاجية بالليل البارد الصافي وبمجموعات نجومه التي لا تحصى ؛ وكانت ثمة فرقـــة موسيقية صغيرة تعزف ، وزوجان من السيّاح الاميركيين ، وكثير من سكان البـلد : عشاق ، وعصابات من الفتيان ، وأسر . وأخذت فتاة صغيرة ترقص ، وكانت في الثالثة او الرابعة من عمرهـــا ؛ كانت دقيقة العود ، سمراء ، ذات عينين سوداوين ، ترتدي ثوباً أصفر واسع الأسفل مبرعماً حول ركبتيها وجراباً ابيض ؛ وكانت تدور حول نفسها ، مرفوعة الذراعين ، غارقة الوجه بالنشوة ، في هيئة شبه جنونية . كانت محمولة بالموسيقى ، مبهورة ، ثملة ، مشوّهة ، ضائعـة . وكانت امّها الهادئة السمينة تثرثر مع امرأة اخرى ضخمة ، فيما هي تدفع وتجذب عربة صغيرة فيها طفل ؛ كانت لا تحسّ الموسيقى ولا الليل ، فكانت تلقي احيـاناً على الصغيرة الملهمة نظرة مسطحة .

– هل رأيت الطفلة ؟

فقال بابا في عدم اكتراث :

– انها لطيفة .

طفلة لطيفة سوف تصبح هذه السيدةَ المسنةَ العاقلة . لا . لم اكن اريـد . أتراني قد شربت من « الاوزو » اكثر مما ينبغي ؟ لقد كنت انا ايضـاً مأخوذة بهذه الطفلة التي كانت مأخوذة بالموسيقى . ولن يكون لهذه اللحظـة المهووسة من نهاية . إن الراقصة الصغيرة لن تكبر ؛ ستظلّ تدور حول نفسهـا طوال الأبد ، وسأظل انظر اليها ؛ كنت ارفض ان انساها ، وان اعود امرأة شابّة تسافر مع أبيها ؛ كنت أرفض ان تشبه أمها ذات يوم ، غير ذاكرة انها كانت هذه الساحرة الرائعة . محكومة صغيرة بالموت ، موت فظيع بلا جثة . إن الحياة ستغتالها . وفكرت بكاترين التي كانت تُغتال .

وقلت فجأة : ما كان لي أن اقبل ارسال كاترين الى عالمة نفسية .

فنظر اليّ بابا مندهشاً . لا شك في ان كاترين كانت بعيدة جداً عن ذهنه .

ـ لماذا تفكرين في هذا ؟

ـ انني افكر فيه غالباً . فانا مشغولة الفكر . لقد قسروني قسراً ، وانا آسفة لذلك .

فقال بابا بلهجة مبهمة :

ـ لا اعتقد ان هذا سيعود عليها باي ضرر .

ـ لو كنت مكانها ، أكنت ترسلني الى عالم نفسي ؟

ـ آه ! لا .

ـ انك ترى اذن .

ـ الحقيقة انني لا ادري ؛ فالقضية لم تكن واردة : كنتِ متزنة تماماً .

ـ عام ٤٥ كنت مضطربة بما فيه الكفاية .

ـ كان لذلك اسباب .

ـ واليوم ، أليس من اسباب ؟

ـ بلى أعتقد أن بلى . لا شك ان من الطبيعي في كل مرحلة ان يكون المرء مذعوراً حين يبدأ في اكتشاف العالم .

فقلت :

ـ إننا اذن نجعلها غير طبيعية اذا اردنا ان نطمئنها .

كانت تلك بديهة ، وقد صعقتني. فبحجة شفاء كاترين من هذه «الحساسية» التي كانت تُقلق جان ـ شارل ، كانوا على وشك تشويهها . وأخذتني الرغبة في أن اعود في اليوم التالي بالذات ، وان استردها منه .

ـ انني افضل ان يتدبر الناس امورهم وحدهم . والحقيقة انني اعتقد ان علم النفس هذا كله ، انما هو شعوذة وتدجيل ـ لا ترددي ذلك خشية ان أُتهَم بانني متخلف عجوز ـ ستجدين كاترين كما تركتها .

ـ اتظن ذلك ؟

ـ بل انا مقتنع به .

واخذ يتحدث عن النزهة التي كان قد رسمها لليوم التالي . انه لم يكن يحمل

هومي على محمل الجد ، وكان ذلك طبيعياً . وانا لم اكن اهتم كثيراً بالاحجار القديمة التي كانت تسحره . وقد كنت اكون ظالمة لو آخذته على ذلك . لا . لم يكن الخط قد تحطم في ِداف .

ميسان . ربما كان ذلك في ميسان . في اية لحظة بالضبط ؟ لقد سلكنا طريقاً محصباً ؛ وكانت الريح تثير دوامات من غبار . وفجأة رأيت هذا الباب ، وهاتين اللبوءتين المقطعتين . وكان ان احسست ... أحدثت هنا الصدمة التي كان ابي يحدّثني عنها ؟ بل الأفضل ان اقول : انه رعب . لقد اتبعت « الدرب الملكي » . ورأيت السطائح ، والاسوار ، والمنظر الذي كانت تراه كليتمنستر حين كانت تترقب عودة اغاممنون . وكان يخيل اليّ اني منتزعة من نفسي . اين تراني قد كنت ؟ إن العصر الذي كان فيه الناس يروحون ويغدون ، وينامون ويأكلون في هذا القصر الذي ظل على حاله ، لم اكن لأنتمي اليه . وحياتي انا لم يكن يعنيها شيء من هذه الخرائب . فماذا يعني اثر مندثر ؟ انه ليس الحاضر ولا الماضي ، وليس هو كذلك الابد : فانه سيزول ذات يوم بلا ريب . كنت اقول لنفسي « ما اجمل هذا ! » وكنت على حافة دوار ، مأخوذة في دوّامة متجاذبة ، مرفوضة . محالة الى « لا شيء » . كنت اود لو اعود الى « جناح السياحة » لاقضي النهار في قراءة الروايات البوليسية وكان ثمة فريق من الامريكيين يلتقطون صوراً ، فقال بابا : « أي برابرة ! إنهم يصورون ليعفوا انفسهم من النظر . » وكان يحدّثني عن الحضارة الميسانية وعن عظمة الاتريديين وعن خرابهم الذي كانت قد نبأت به كسّاندر ؛ وكان يحمل دليلاً في يده ويحاول ان يتعرّف الى كل بوصة من الأرض . وكنت اقول في نفسي . انه في الحقيقة كان يفعل الشيء نفسه الذي كان يفعله السيّاح الذين كان يسخر منهم : كان يحاول ان يدخل في حياته بقايا زمن لم يكن زمنه . انهم سيلصقون الصور على ألبوم وسيُرونها لاصدقائهم . اما هو فسيحمل في رأسه صوراً مع أساطيرها ، وسيضعها في موضعها من متحفه الداخلي ؛ واما انا فلم يكن لي ألبوم ولا متحف : كنت التقي الجمال ، ولم اكن اجد ما

افعله به . وفي طريق العودة قلت لبابا :

– انني احسدك .

– لماذا ؟

– ان هذه الأشياء تعني كثيراً بالنسبة لك .

– لا بالنسبة لك ؟

كانت هيئة الخيبة بادية عليه ، فقلت بحيوية :

– وبالنسبة لي ايضاً . ولكني لا احسن فهمها مثلك . فليست لي ثقافتك .

– اقرئي اذن هذا الكتاب الذي اعرتك اياه .

– سأقرأه .

وقلت في نفسي حتى بعد ان اقرأ ، فانه لن يقلقني التفكير بانهم قد وجدوا اسم « آتريه » على لوحات ، في كابادوس . انني لن استطيع بين ليلة وضحاها ان استسلم للهوس من اجل هذه الحكايات التي اجهل منها كل شيء . فلا بد من ان يكون المرء قد عاش طويلاً مع هوميروس والمسرحيين اليونانيين ، وان يكون قد سافر كثيراً ، ليستطيع ان يُقارن. انني أحسُّني اجنبية تجاه جميع هذه العصور الميتة وهي تسحقني .

وخرجت امرأة ترتدي السواد من احدى الحدائق واومأت لي . فاقتربت منها : فمدت لي يدها وهي تتمتم ؛ واعطيتها بضعة دراهم . وقلت لبابا :

– هل رأيت ؟

– من ؟ الشحاذة ؟

– انها ليست شحاذة . إنها فلاّحة ، وليست هي عجوزاً . وهذا فظيع ، بلد يستعطي فيه الفلاحون .

قال بابا :

– نعم . إن اليونان بلد فقير .

وحين كنا نتوقف في بعض القرى الصغيرة ، كنت غالباً ما انزعج للتناقض بين هذا القدر الكبير من الجمال وهذا القدر الكبير من البؤس وكان بابا قد اكّد لي يوماً ان بعض الطوائف الفقيرة حقاً ، في سردينيا وفي اليونان – يبلغون ،

بفضل جهلهم للمال ، قيماً فقدناها نحن وسعادة زاهدة . ولكن قرويي البيلوبونيز لم يكن يبدو عليهم انهم مسرورون على الاطلاق ، ولا النساء اللواتي كنّ يكسّرن الحصى في الطرق ، ولا الطفلات اللواتي كن يحملن دلاء للمياه أثقل مما ينبغي . وكنت أتغاضى عن ذلك . فنحن لم نأت الى هنا لنشفق عليهم . ولكني كنت أود مع ذلك ان يقول لي بابا اين تراه قد التقى باشخاص كان عوزهم يسعدهم .

وفي تيرانت وابيدور عاودني الانفعال الذي كان قد استولى عليّ في ميسين . وكنت مَرِحةً جداً في تلك الليلة التي وصلنا فيها إلى اندريتسانا . كان الوقت متأخراً ، وكنا قد ركبنا السيارة في ضوء القمر على طريق متشققة ، عند حافة هاوية ؛ وكانا بابا يقود بهيئة استغراق ؛ وكنا معاً نحسّ بعض النعاس ، وكنا متعَبَين ، وكنا نحس نفسينا وحيديْن في العالم ، في ظلّ بيتنا المتحرّك بينما كانت المصابيح تشق لنا درباً في الظلام .

وكان بابا قد قال لي :

ـ هناك فندق لطيف . ريفيّ ومعنيّ به .

وكانت الساعة الحادية عشرة حين توقفنا في ساحة القرية امام نُزل ذي مصاريع مغلقة . وقال لي :

ـ ليس هذا هو فندق السيد كريستوبولوس .

ـ فلنبحث عنه .

وتهنا على الاقدام في شوارع صغيرة خالية ؛ لم يكن ثمة ضوء في النوافذ ، ولا فندق غير هذا الفندق . وطرق بابا الباب ، ونادى : فلم يتلقّ جواباً . وكان الطقس بارداً جداً ، فلم يكن طريفاً ان ننام في السيارة . وعدنا نطرق الباب ونصيح . واقبل رجل من قلب الشارع وهو يعدو بشعرٍ اسود وقميص ابيض باهر :

ـ هل انتما فرنسيان ؟

ـ نعم .

– لقد سمعتكما تناديان بالفرنسية . إن الغد هو يوم سوق ؛ فالفندق ممتلىء .
– انك تتكلم الفرنسية جيداً جداً .
– اوه : ليس جيداً . ولكني أحبّ فرنسا .

وكان يبتسم بسمةً ناصعة كقميصه . أن فندق السيد كريستوبولوس قد أقفل ، ولكنه سيبحث لنا عن سريرين . وتبعناه : كانت المغامرة تسحرني . انـــه ذلك اللون من المغامرة الذي لا يحدث قطّ مع جان – شارل : فنحن نسافر ، ونتوقف في الساعة المحدّدة ، ويكون قد حجز الغرف مسبّقاً .

ودقّ اليوناني احـــد الأبواب ، فظهرت امرأة على نافذة . نعم ، كانت موافقة على تأجيرنا غرفتين . وشكرنا دليلنا الذي قال لنا :

– أود كثيراً أن ألتقيكما صباح الغد ، لنتحدث عن بلدكما .
– بكل رضى . وأين يكون اللقاء ؟
– في مقهى على الساحة .
– اتفقنا . هل تناسبك الساعة التاسعة ؟
– اتفقنا .

وفي غرفة حمراء اللون ، تحت ركام من الأغطيـة نمت حتى ايقظتني يد بابا على كتفي .

– إن حظنا حسن ، فاليوم يوم سوق . انا لا اعرف ان كنت مثلي، ولكني أعشق الأسواق .
– سأعشق هذا اليوم .

كانت الساحة مغطاة بنسوة يرتدين الثياب السوداء امـام سلال موضوعة على الأرض : بيض ، جبن الماعز ، ملفوف ، بعض الفراريج الهزيلة . وكان صديقنا ينتظرنا أمام المقهى . وكان الطقس بارداً : ولا بد ان البائعات كنّ مجلّدات . ودخلنا ؛ وكنت أموت جوعاً ، ولكن لم يكن ثمة طعام . وعزّاني عن ذلك نكهة القهوة السوداء الكثيفة .

وأخذ اليوناني يتحدث عن فرنسا ؛ لقـد كان شديد السعادة كلما التقى

بفرنسيين ! فما اعظم حظنا ان نعيش في بلد حرّ ! وقد كان يحب كثيراً مطالعة الكتب الفرنسية ، والجرائد الفرنسية . وقد خفض صوته وهو يتكلم ، بداعي العادة دون شك اكثر منه بداعي الحذر :

– في بلدكم لا يضعون أحداً في السجن بسبب آرائه السياسية .

وبدت على بابا هيئة متفهّمة أثارت دهشتي: صحيح انه يعرف أشياء كثيرة؛ وهو من شدة التواضع بحيث لا نحس ذلك . وسأل بصوت خافت :

– هل الاضطهاد على حاله من القسوة ؟

فهزّ اليوناني رأسه :

– إن سجن « ايجين » مليء بالشيوعيين . وليتك تعرف كيف يُعامَلون !

– أتكون في مثل فظاعة المعسكرات ؟

– في مثل فظاعتها .

وأضاف في شيء من التفخيم :

– ولكنهم لن يحطّموا !

وسألنا عن الوضع في فرنسا ، فرماني بابا بنظرة متواطئة ، وأخذ يتحدث عن مصاعب الطبقة العمّالية وعن آمالها وعن انتصاراتها : فكأنما كان عضواً في الحزب الشيوعي . وكان ذلك يسلّيني ، ولكن كنت أحسّ تشنجات في معدتي . وقلت :

– انا ذاهبة لأرى ان كنت أجد شيئاً اشتريه .

وتسكّعت في الساحة . كان ثمة نساء يرتدين السواد ايضاً يناقشن البائعات: « سعادة زاهدة » : أليس هذا على الاطلاق ما كنت اقرأه على هذه الوجوه المحمّرة بالبرد . كيف أمكن بابا ان ينخدع الى هذا الحدّ ، هو المعروف بتبصُّره؟ لا شكّ في انه لم يرَ هذا البلد إلا صيفاً : فهم بكل تأكيد اكثر مرحاً مع الشمس والفاكهة والزهور .

اشتريت بيضتين قلاهما لي صاحب المقهى ، فقطعت إحداهما وأحسست برائحة فظيعة ؛ وفتحت الثانية ، فكانت هي ايضاً فاسدة . وذهب اليوناني

فجاء بأخريين قلاهما : فكانتا كلتاهما فاسدتين .

– عجباً ! لقد وصلت لتوّها من الريف !

– إن السوق تقوم كل خمسة عشر يوماً . فاذا كان المرء محظوظاً وقع على بيض يعود عهده الى عشية اليوم السابق . وإلاّ ... فلأفضل ان تؤكل مسلوقة، وكان عليّ ان أنبّهكما الى ذلك .

– أفضّل ألا آكلهما على الاطلاق .

وبعد ذلك بقليل ، قلت لبابا ونحن على طريق معبد « باسا » :

– لم أكن أظنّ ان اليونان فقيرة الى هذا الحد .

– لقد هدمتها الحرب ، ولا سيما الحرب الأهلية .

– إن هذا الرجل لطيف . وقد مثلت دورك جيداً : فقد اقتنع باننا شيوعيان !

– إنني احترم شيوعيي هذا البلد ، لأنّ من الصحيح انهم يجازفون بدخول السجن ، بل يجازفون برؤوسهم .

– أكنت تعرف ان هناك مثل هذا العدد من المساجين السياسيين في اليونان ؟

– طبعاً . كان لي زميل لا يفتأ يقصفنا بالعرائض التي يطلب توقيعها ضد المعسكرات اليونانية .

– وكنت توقّع ؟

– نعم ، وقّعت مرة . انني مبدئياً لا أوقّع على شيء . لأن هذا اولاً غير مجدٍ على الاطلاق ؛ ثم إن وراء جميع هذه المبادرات ، التي هي في الظاهر انسانية ، مناورات سياسية دائماً .

وعدنا الى أثينا ، وألححت من أجل زيارة المدينة الحديثة . وسرنا حول ساحة أومونيا ، فالتقينا أشخاصاً كئيبين ، سيئي اللباس ، ذوي روائح مشحمة . وكان بابا يقول لي : « ترين ان ليس ثمة ما يُرى » . وكنت أودّ ان اعرف ما الذي كان يحدث وراء هذه الوجوه المطفأة . وفي باريس أيضاً ، أجهل كل شيء عن الأشخاص الذين ألتقيهم ، ولكني هناك شديدة الانشغال

بحيث لا أهتمّ بهم ؛ اما في أثينا ، فلم يكن لديّ شيء آخر أفعله .

وقلت :

ـ يجب ان نعرف بعض اليونانيين .

ـ لقد عرفت بعضهم ، ولم يكونوا يثيرون الاهتمام قط . والحق ان جميع الناس متشابهون في جميع البلدان ، في زمننا هذا .

ـ ومع ذلك ، فالمشكلات هنا ليست مشابهة لمشكلات فرنسا .

ـ انها مشكلات يومية بصورة مريعة ، هنا وهناك .

كان التناقض هنا أشدّ وضوحاً منه في باريس ـ في نظري على الأقل ـ بين بذخ الاحياء الرفيعة وكآبة الجماهير .

ـ اعتقد أن هذا البلد اشدّ مرحاً في الصيف .

فقال لي بابا في ظلّ من العتاب :

ـ إن اليونان ليست مرحة ؛ انها جميلة .

كانت لوحات « كوراي » جميلة ، بشفاهها الباسمة ، وعيونها الثابتة ، وهيئتها المرحة التي لا تخلو من بلاهة . لقد احببتها كثيراً . وكنت أعرف انني لن أنساها ابداً ، وكنت أود أن اغادر المتحف فوراً بعد ان شاهدتها . اما التماثيل الأخرى ، فلم أنجح في الاهتمام بها . كان تعبٌ كبير يستولي عليّ ، جسدياً وروحياً ؛ وكنت معجبة ببابا ، بقدرته على التركيز والفضول . سأتركه بعد يومين فلا أجد اني عرفته خيراً من قبل : هذه الفكرة التي كنت أحفظها منذ ... متى ؟ قد اخترقتني فجأة . ودخلنا الى قاعة ملآى بالأواني ، ورأيت أن هناك قاعات وقاعات متتابعة ، كلها ملآى بالأواني . وانزرع أبي امام واجهة ، وبدأ يعدّد لي العهود والاساليب وفروقها التفردية : المرحلة الهوميرية ، المرحلة السابقة للعهد الكلاسيكي ، أوانٍ ذات وجوه سوداء ، وذات وجوه حمراء ، وقاع أبيض ؛ وكان يشرح لي المشاهد المرسومة على جوانبها . كان وهو واقف امامي يبتعد الى آخر القاعات ذات الأرض الخشبية اللامعة ، أو انا التي كنت انقضّ في هاوية من اللامبالاة ؛ وعلى اي حال ، كان بيننا الآن مسافة غير

قابلة للعبور ، لأن فرقاً في اللون او نقشاً لورقة نخيل او رسماً لعصفور كانت في نظره موضوع دهشة او بهجة يردّه الى سعادات قديمة ، الى ماضيه كله . اما انا ، فكانت هذه الاواني تقتلني ضجراً ، واذ كنا نتقدم من واجهة الى واجهة ، كان سأمي يتفاقم حتى الضيق ، بينما كنت أفكّر : « لقد فاتني كل شيء » . وتوقّفت وانا أقول : « بتُّ لا أحتمل ! »

– بالفعل ، انك لا تتماسكين بعد للوقوف : وكان ينبغي لك ان تقولي ذلك قبل الآن !

وكان متأسفاً ، ولا شك في انه كان يفترض ضعفاً نسائياً يضعني فجأة على حافة الاغماء . وقادني الى الفندق حيث شربت بعض الشراب وانا احاول ان احدّثه عن « كوراي » . ولكنه كان يبدو لي خارج متناولي ، وكان يبدو خائباً .

وصباح اليوم التالي تركته يدخل وحده متحف الاكروبول .

– أفضّل ان ارى البارتينون مرة اخرى .

كان الهواء رقيقاً ؛ وكنت انظر الى السماء والمعبد فأحسّ إحساساً مرّاً بالهزيمة . كان ثمة مجموعات وازواج يستمعون الى الادلة باهتمام مهذّب او أنهم كانوا يمتنعون عن التثاؤب . وكانت اعلانات بارعة قد اقنعتهم انهم سيتذوقون هنا نشوات لا توصف ؛ ولن يجرؤ أحدٌ منهم لدى العودة على الاعتراف بأنه ظلّ بارداً كالثلج ؛ بل انهم سيحثون أصدقاءهم على الذهاب لمشاهدة أثينا ، وتستمرّ سلسلة الأكاذيب ، فتظل الصور الجميلة بمنجىً من المسّ على الرغم من جميع الحقائق . على اني أتمثّل من جديد هذين الزوجين الفتيين وهاتين المرأتين الأقلّ فتوة الذين كانوا يصعدون على مهل نحو المعبد ، والذين كانوا يتبادلون الحديث ، والابتسام ، ويقفون وينظرون بهيئة من السعادة الهادئة . لماذا لا أكون انا مثلهم ؟ لماذا اراني عاجزةً عن حب الأشياء التي اعرف انها جديرة بالحب ؟

ودخلت مارت الى الغرفة :

– لقد أعددت لك حساءً .

– لا اريد حساء .

– اقسري نفسك قليلاً .

وإرضاءً لهم ، التهمت لورانس الحساء . يومان مضيا من غير طعام . وبعد ذلك ؟ ما دامت غير جائعة . نظراتهم القلقة . وأفرغت الفنجان ، وأخذ قلبها يخفق ، وامتلأت عَرَقاً . ولم يمهلها الوقت اكثر من ان تهرع الى الحمّام وتقيء . كما حدث امس الاول ، واليوم الذي سبقه . ايّ عزاء ! انهـــا تود لو تستفرغ نفسها اكثر من ذلك ، ان تقيء نفسها كلهـــا . وفركت فمها ، وارتمت على سريرها مرهقة ، مستردةً هدوءها .

قالت مارت :

– لم تحتفظي بالحساء ؟

– قلت لك اني لا أستطيع ان آكل .

– يجب ان تري طبيباً على الفور .

– لا أريد .

ماذا يستطيعه الطبيب ؟ وما جدوى ذلك ؟ اما وقد قاءت الآن ، فانها تشعر بالراحة . وهبط الظلام في نفسها ، فاستسلمت لليل . وفكّرت بقصّة قرأتها : قصّة خُلْدٍ يتلمّس طريقه عبر الممّرات الارضية ، حتى يخرج منهـا ويحس رطوبة الهواء ؛ ولكنه لا يحسن ان يخترع فتح عينيه. وروت الحكاية لنفسها على نحوٍ آخر : إن الخُلْد في جحره الأرضي يخترع فتح عينيه ، ولكنه يرى ان كل شيء مظلم أسود . ليس لهذا ايّ معنى .

وجلس جان – شارل على سريرها ، آخذاً يدها :

– يا حبيبتي ، حاولي ان تقولي لي ما الذي تشكينه ؟ إن الدكتور لوبيـل الذي تحدّثت معه يعتقد أنك تعانين من معاكسة ضخمة ...

– كل شيء على ما يرام .

– لقد تحدّث عن فقدان الشهية عندك . وهو آتٍ عما قليل .

ـ لا !

ـ إذن اخرجي من هنا . فكّري . إن الانسان لا يفقد شهيته بلا سبب : جِدي السبب .

فسحبت يدها :

ـ انني متعبة . اتركني .

وقالت لنفسها حين خرج : صحيح ان هناك معاكسات ، ولكنها ليست من الخطورة بحيث تمنعها من ان تنهض ومن ان تأكل . كنت أحس الحزن العميق في طائرة الكارافيل التي كانت تعود بي الى باريس . لم اكن قد نجحت في الفرار من سجني ، بل كنت أراه ينغلق عليّ فيما كانت الطائرة تغطس في الضباب .

وكان جان ـ شارل على المطار :

ـ هل قمت برحلة جميلة ؟

ـ رائعة !

لم تكن تكذب ، ولكنها لم تكن تقول الحقيقة . يا لهذه الكلمات كلها التي تقال ! كلمات ... في البيت ، استقبلتني الصغيرتان بصرخات فرحة ، وقفزات ، وقبلات وركام من الاسئلة . وكان في جميع الأواني زهور . وزعتُ اللعب والتنانير والوشاحات والألبومات والصور ، وبدأت اقص رحلة رائعة . ثم رتبت ثيابي في خزانتي . ولم يكن لديّ شعور بأني امثّل دور المرأة الشابّة التي تعود الى بيتها : بل كان الأمر سواء من ذلك . انني لم أكن كذلك شيئاً آخر . إن احجار الاكروبول لم تكن اكثر غربة لي من هذا المنزل . وكاترين وحدها ...

ـ كيف حالها ؟

فقال لي جان ـ شارل :

ـ يخيّل إليّ انها على ما يرام . إن عالمة النفس تودّ لو تخابرينها تلفونياً بأقرب فرصة ممكنة .

– اتفقنا .

وتحدّثت مع كاترين ؛ كانت بريجيت قد دعتها لقضاء عطلة الفصح معها ، في منزل كان يخصّ أسرتها ، قرب بحيرة « سيتون » ؛ فهل اسمح لها ؟ نعم . كانت تعرف جيداً اني سأقول نعم ، وكانت مسرورة . وهي متفاهمة تماماً مع السيدة « فروسار » : فقد كانت في بيتها ترسم وتلعب بمختلف اللعب ، وتصيب تسلية كبيرة .

ربما كان التنافس بين الأم والطبيبة النفسية شيئاً كلاسيكياً : ولم أكن بعيدةً عن ذلك على كل حال . وكنت قد رأيت السيدة فروسار مرتين ، بلا ودّ : كانت لطيفة ، ويبدو عليها انها ذات كفاءة ، وكانت تطرح اسئلة ذكية ، فتسجّل الأجوبة وتصنفها بسرعة . وحين غادرتها ، في المقابلة الثانية ، كانت تعرف عن ابنتي مثل ما أعرف على وجه التقريب . وقبل ان أسافر الى اليونان تلفنت لها ، فلم تقل لي شيئاً : ذلك ان المعالجة كانت في اول أمرها . وتساءلت وأنا أدقّ بابها : « والآن ؟ » وكنت في موقف الدفاع : مسلّحةً بالأسلاك الشائكة . ولم يَبْدُ أنها تنبّهت لذلك ، وشرحت لي الوضع بصوتٍ باسم . وكان رأيها في مجمله أن كاترين تملك اتزاناً شعورياً طيّباً ؛ وهي تحبّني حباً هائلاً ، وكذلك لويز ؛ ولا تحبّ أباها بما فيه الكفاية ، فيجب ان يُطلب منه جهد إضافي من أجل ذلك . وليس في عواطفها لبريجيت ايّ تطرُّف . ولكنّ بريجيت ، لكونها أكبر منها سنّاً وأبكر نضجاً ، تعقد معها أحاديث تخلّف عندها الاضطراب .

– ولكنها كانت قد وعدتني بان تتنبّه وتكون حذرة ؛ وهي طفلة صادقة ومستقيمة جداً .

– ولكن ، يا سيدتي العزيزة ، كيف تريدين من فتاة في الثانية عشرة ان تَزِنَ كلماتها تماماً ؟ ربما كانت تحتفظ لنفسها ببعض الأشياء ؛ وتروي أشياء اخرى تسيء كاترين تلقّيها . إنّ قلقها يبرز للعيان بوضوح في رسومها وتداعياتها الفكرية وأجوبتها على الأسئلة التجريبية .

والحقيقة اني كنت أعرف . لم أكن قد انتظرت السيدة فروسار لأفهم اني كنت قد طلبت المستحيل من بريجيت : إن الصداقة تفترض ان نتكاشف بقلب مفتوح . وقد كانت الطريقة الوحيدة لحماية كاترين من نفسها هي الحيلولة دون التقاء الطفلتين : وتلك كانت النتيجة التي انتهت اليها السيدة فروسار . ولم تكن القضية في هذه الحالة قضية لون من الوان الهوس الصبيانيـة التي لا تقاوم والتي تشكـّل مواجهتها بقسوة خطراً اكيداً . فاذا باعدنا بين لقائهما في مهارة ، فان كاترين لن تضطرب لذلك . وكان المفروض ان أتدبّر الأمر بحيث يقلّ اجتماعهما من الآن حتى العطلة الصيفية ، وبحيث لا تكونان بعدُ في العام القادم في الصف نفسه . ومن المستحسن ايضاً ان أجد لابنتي صديقات اخريات اكثر طفولة من بريجيت .

وقال لي جان – شارل بصوت انتصار :

– هل ترين ؟ ! لقد كنت على حقّ . فهذه الصغيرة هي التي حرفت كاترين.

وما زلت أسمع ذلك الصوت ؛ وأتذكـّر بريجيت ، والدبّوس عالق في ثنية تنورتها : « صباح الخير يا سيدتي » ؛ وتضيق العقدة في حنجرتي . إن الصداقة لشيء ثمين . لو كانت لي صديقة لحدّثتها بدلاً من أن أبقى جامدة واهنة .

– اولاً سنحتفظ بها في عيد الفصح .

– ستكون حزينة .

– لن تكون كذلك اذا عرضنا عليها ما هو أشدّ اغراءً .

وتحمّس جان – شارل : إن كاترين مسحورةٌ بالصور التي جلبتهـا من اليونان ؛ حسناً ؛ فسنأخذها الى روما مع لويز . وعند العودة ، يجب ان توجد لها مشاغل تستغرقهـا : رياضة او رقص ، او فروسية ! تلك كانت فكرة عظيمة ؛ حتى من الناحية الشعورية . استبدال صديقة بحصان ! وناقشت الأمر . ولكن جان – شارل كان مصمّماً . روما ودروس في الفروسية .

وبدت كاترين في هيئة متململة حين تحدّثت عن رحلة الى رومـا : « لقد وعدتُ بريجيت ؛ وهذا ما سوف يشقّ عليها . »

- سوف تفهم . رحلة الى روما : هذا ما لا يحدث كل يوم . ألست راغبة في ذلك ؟

- كنت أفضّل الذهاب الى بيت بريجيت .

وكانت حزينة . ولكن من المؤكّد انها ستمتليء حماساً يوم تصل إلى روما. ولن تفكّر أبداً بصديقتها . قليل من الفظنة والمهارة ، وستكون في العام القادم قد نسيتها تماماً .

وتقلّصت حنجرة لورانس . لم يكن لجان - شارل أن يناقش قضية كاترين، في اليوم التالي ، بصورة علنية . إن ذلك خيانة وانتهاك . أية رومانتيكية ! ولكن نوعاً من الخجل كان يخنقها ، كما لو انها كانت كاترين وفاجأتهم في الحديث. كانوا جميعاً يتناولون العشاء في منزل دومينيك : ابوهـا ، ومارت ، وهوبير ، وجان - شارل وهي نفسهـا . (كانت امي قد اخذت ترتاح للاجتماعات العائلية .. ويا للطافة بابا ومجاملته لها !)

لقد قال :

- روت لي اختي حالة مشابهة تماماً . ففي الصف الرابع ارتبطت واحـدة من افضل طالباتها مع زميلة اكبر منهـا سناً وكانت أمها من مدغشقر . فاذا برؤيتها كلها للعالم تتغيّر ، وكذلك شخصيتها .

فسألت :

- هل فرّقوا بينهما ؟

- هذا ما لا أعرفه .

فقالت دومينيك :

- حين نستشير اخصائياً ، فيبدو لي أنّ علينا ان نتبع نصائحه .

والتفتت إلى بابا وسألته بلهجة مراعية ، كما لو انها كانت تعلّق اهمية كبيرة على رأيـه :

- أليس كذلك ؟

وكنت أفهم ان تكون متأثرة بعنايته. فهي شديدة الحـاجة الى الاحترام

والصداقة . غير ان ما كان يسوءني هو ان يقع في شرك غنجها ودلالها .

– هذا يبدو منطقياً .

ذلك الصوت المتردّد . لقد كان معذلك ، في « دلف » ، حين كنا ننظر الى الفتاة المجنونة بالموسيقى ترقص – كان من رأيي .

وقالت مارت :

– في رأيي ان المشكلة قائمة في مكان آخر .

وكرّرت ان عالماً بلا رب ، بالنسبة لطفل ، كان غير قابل لأن يُعاش فيه . ولم نكن على حق في أن نحرم كاترين من تعزيات الدين . اما هوبير فكان يأكل في صمت . ولا بد انه كان يدبّر مبادلات معذبة لسلاسل المفاتيح ، وكانت هذه آخر هواياته . وقلت :

– إن من الهامّ على اي حال ان يكون لفتاة صغيرة صديقة .

فأجابتني دومينيك :

– لقد كنتِ انت في غنى عن هذا تماماً .

– ليس الى الحد الذي تظنّين .

فقال جان – شارل :

– سنجد لها صديقة اخرى . اما هذه فلا تناسبها ما دامت تبكي ، وتشعر بالكوابيس ولا تتابع دروسها كما ينبغي ، وما دامت السيدة فروسار تجدها وقد انحرفت قليلاً عن محورها .

– يجب مساعدتها لاستعادة توازنها . ولكن لا بفصلها عن بريجيت .

– اسمع يا بابا . لقد كنت في دلف تقول انه من الطبيعي ان يُحس المرء باضطراب حين يبدأ باكتشاف العالم .

– هناك اشياء طبيعية من الافضل تجنّبها ؛ فمن الطبيعي ان نصرخ اذا أحرقنا يدنا ! فالأفضل الا نحرق يدنا . واذا كانت عالمة النفس تجدها قد انحرفت عن محورها ...

– ولكنك لا تؤمن بعلماء النفس !

واحسست ان صوتي كان يعلو . ورماني جان – شارل بنظرة مستاءة :

– اسمعي . ما دامت كاترين تقبل الذهاب معنا من غير ان تجعل من هذا مأساة ، فلا تجعلي انت منها مأساة .

– انها لا تجعل من ذلك مأساة ؟

– على الاطلاق .

– اذن !

قالها ابوها ودومنيك معاً . اذن ؟ اما هوبير فقد هزّ رأسه بهيئة مرافقة . واجبرت لورانس نفسها على الطعام ، ولكنها انها احست آنذاك بأول تشنج . كانت تعرف انها مهزومة . ان المرء لا يكون على حق في وجه جميع الناس ؛ وهي لم تكن يوماً من الترفّع بحيث تعتقد هذا . (لقد كان هناك غاليله وباستور وآخرون كانت تذكرهم لنا الآنسة هوشيه ، ولكنني لا أعتبر نفسي غاليله) وإذن ، ففي عيد الفصح – وستكون بكل تأكيد قد شفيت، فالقضية قضية ايام ، فالانسان يشمئز من الطعام بضعة أيام ، ثم ينتهي الأمر بالضرورة إلى التطامن والانهيار – سيأخذان كاترين الى روما . وتلتشنج معدة لورانس . لعلّها لن تستطيع ان تأكل قبل مضيّ وقت طويل . وستقول عالمة النفس انها تتمارض عن قصد لأنها لا تريد ان تأخذ كاترين . كلام فارغ . لو انها لم تكن تريد حقاً ، لرفضت ، ولقاتلت من أجل ذلك . وسيكونون جميعاً مجبرين على الخضوع .

جميعاً . لأنهم جميعاً ضدّها . ومرة أخرى تنقضّ عليها الصورة التي تدفعها بأكبر قدر من العنف ، والتي تنبثق بمجرّد أن يتراخى نشاطها وتنبهها : جان – شارل وبابا ودومينيك وهم يضحكون كما لو كانوا على إعلان اميركي يمتدح نتاجاً من وجبة عصيدة . انهم متصالحون ، مستسلمون معاً لمباهج الحياة العائلية . والاختلافات التي كانت تبدو جوهرية لم تكن لها مثل هذه الأهمية بعد كل حساب . إنها وحدها المختلفة ؛ مطرّحة ؛ غير قادرة على الحياة ؛ غير قادرة على الحبّ . وبكلتا يديها تتشبّث بغطائها . ما قد اقبل عليها ما تخشاه اكثر

من الموت . لحظة من اللحظات التي ينهار فيها كل شيء ؛ إن جسمها من حجر ، وهي تودّ لو تئنّ وتهدر ؛ ولكن ليس للحجر من صوت قطّ ؛ ولا دموع .

انني لم أرد أن أصدق دومينيك ؛ كان ذلك بعد ثلاثة أيام من ذلك العشاء ، وبعد ثمانية ايام من عودتنا من اليونان . لقد قالت لي :

ـ تصوّري اننا نفكر في العودة الى الحياة المشتركة ، ابوك وأنا .

ـ ماذا ؟ انت وبابا ؟

ـ أيدهشك هذا إلى هذا الحدّ ؟ ولماذا ؟ إن لدينا في الحقيقة اشياء كثيرة مشتركة . لدينا اولاً ماضٍ برمته ؛ ثم انت ومارت واولادكا .

ـ ولكن ذوقيكما مختلفان كل الاختلاف .

ـ كانا كذلك ولكننا تغيرنا قليلاً ونحن نشيخ .

كنت اقول لنفسي : « بعض الهدوء » . وكان في غرفة الاستقبال زهور ربيعية من سوسن وغيره . أهي هدايا من بابا ام انها كانت تغيّر اسلوبها ؟ مَن كانت تقلد ؟ المرأة التي كانت تتمنى أن تصبحها ؟ كانت تتكلم . وكنت اترك الكلمات تنزلق عليّ وأنا ما زلت امتنع عن تصديقها : كانت غالباً ما تروي لنفسها الحكايات . كانت بحاجة الى الأمن والمحبة والاحترام . وكان هو يكنّ لها من ذلك الكثير . كان يتحقق من انه كان قد أساء الحكم عليها ، وان حبها للناس والمجتمع ، ومطامحها ، انما كانت نوعاً من الحيوية . والحق انه كان بحاجة إلى من هو حي الى جانبه . كان يحس نفسه وحيداً ، وكان يعاني السأم ؛ إن الكتب والموسيقى والثقافة أشياء جميلة جداً ، ولكن هذا لا يملأه حياة ، كان لا بد من الاعتراف بأنه كان ما يزال جذاباً جداً . ثم انه كان قد تطور . كان يدرك ان النزعة السلبية شيء عقيم . وكانت قد اقترحت عليه ، بالنظر الى معرفتها للحياة البرلمانية ، ان يُشارك في مناقشة بالاذاعة : « انك لا تتصورين السرور الذي خلفه هذا في نفسي » . وكان الصوت يسيل ، متساوياً ، مَرْضياً ، في دفء غرفة الاستقبال التي كانت قد ترددت فيها صرخات تثير الاشمئزاز . « بل ستتحمّل ، ستتحمّل » لقد كان جيلبير على حق . اننـــا نصرخ ونبكي

وتلشنج كما لو انه كان في الحياة ما هو جدير بهذا الصراخ وهذه الدموع وهذه الألوان من الاضطراب .

وليس هذا حق صحيحاً . ليس ثمة ما هو غير قابل للاصلاح لأنه ليس ما هو ثمة هام . فلماذا لا يبقى الانسان طوال حياته في السرير ؟

وقلت :

ـ ولكن عجباً ! إنك تجدين حياة بابا باهتة الى حد بعيد !

انني لم أكن أفهم . إن دومينيك لم تكن فجأة قد غيّرت رأيها ببابا ولم تكن قد اقتنعت برؤيته للعالم ، ولا استسلمت لمشاركته بما كانت تسميه بتوسطه . وقالت بحيوية :

ـ آه سوف أحتفظ برؤيتي للعالم . ونحن متفقان بهذا الصدد كل الاتفاق ؛ فلكل منا شواغله ووسطه .

ـ نوع من التعايش السلمي ؟

ـ اذا اردت ذلك .

ـ لماذا إذن لا تكتفيان بان تتقابلا بين حين وحين ؟

فقالت دومينيك :

ـ انت بلا ريب لا تعرفين العالم ، ولا تدركين ما فيه !

ولزمت الصمت لحظة ؛ وكان واضحاً ان ما تجيله في رأسها لم يكن ممتعاً لذيذاً .

ـ لقد سبق ان قلت لك إن امرأة بلا رجـل هي ، اجتماعياً ، كائن بلا طبقة ؛ هـذا ملتبس . أنا أعرف انهم بدأوا ينسبون لي عشاقاً ؛ والواقع ان هناك من يعرّض نفسه لذلك .

فقلت :

ـ ولِمَ لا ؟ لقد كان بامكانك ان تختاري رجلاً ألمع .

وشددّت على الكلمة الأخيرة .

ـ لامع ؟ ليس ثمة من هو لامع اذا قورن بجيليبير لو فعلت ذلك لبدا عليّ

اني أكتفي ببديل . إن أباك هو شيء مختلف تماماً .

واكتسى وجهها بتعبير حالم كان ينسجم مع السوسن وزهور الربيع :

ـ زوجان يلتقيان من جديد بعد فراق طويل ليواجها الشيخوخة معاً ـ ربما دهش الناس لذلك ، ولكنهم ، لن يقهقهوا ساخرين .

كنت أقلّ منها تيقناً من ذلك ؛ اما الآن ، فقد فهمت . الأمان والاحترام: هذا ما تحتاج اليه أولاً . "إن علاقات جديدة ، لو قامت ، ستنحطّ بها الى مستوى النساء السهلات ؛ والعثور على زوج ليس يسيراً إلى هذا الحد . وكنت أتمثّل الشخصية التي ستبنيها لنفسها : امرأة واصلة ، امرأة ناجحة ولكنها تنفصل عن الوان الخفة ، وتؤثر عليها مباهج أرصن وأصعب وأكثر صميمية .

ولكن هل كان بابا على وفاق ؟ لقد مرّت لورانس في المساء نفسه لترى أباها . في ذلك المنزل ، منزل رجل وحيد كان يروق لها كثيراً بجرائده وكتبه المبعثرة ، ورائحته القديمة . وسألته على الفور تغريباً وهي تقتسر الابتسام :

ـ أصحيح ما ترويه دومينيك من انكما ستعودان الى الحياة المشتركة ؟

ـ نعم ، على ما قد يكون في ذلك مما يثير دهشتك !

وكان يبدو عليه بعض الارتباك : كان يتذكّر ما سبق ان قاله عن دومينيك .

ـ نعم ، اعترف ان هذا يدهشني . لقد كنتَ شديد الحرص على وحدتك .

ـ لست مجبراً على أن أفقدها اذا أقمت في بيت أمّك . إن منزلها كبير جداً . ومن كان في مثل سننا محتاج طبعاً الى الاستقلال .

وقالت :

ـ اعتقد أنّ هذه فكرة طيبة .

ـ أظن ذلك . انني أعيش منطوياً على نفسي أكثر مما ينبغي . فيجب على اي حال الاحتفاظ باتصالنا بالعالم . وانت تعلمين ان دومينيك قد نضجت ؛ إنها تفهمني أكثر جداً من الماضي .

وكانا قد تحدّثا في أمور كثيرة وابتعثا ذكريات رحلتهما الى اليونان .

وفي المساء كانت قد قاءت عشاءها ، فلم تنهض من سريرها في اليوم التالي ، ولا في اليوم الذي تلاه ، وكانت مصعوقـــة بجريٍ عنيفٍ للصور والكلمات التي كانت تثب في رأسها متصارعة كأنها خناجر ماليزية في درج مقفل (فاذا فُتح كان كل شيء منتظماً هادئاً) وفتحتْ الدرج . إن كل ما في الأمر انها مصـابةٌ بالغيرة . لقد صُفتّي اوديب تصفية رديئة ، فظلّت أمّي منافستي . الكترا ، أغاممنون . أمن أجل هذا أثرت فيّ ميسين كلّ هذا التأثير ؟ لا ، لا . ترّهات . لقد كانت ميسين رائعة ، وجمالها هو الذي أثـّر فيّ . وأُغلق الدرج من جديد ، فعادت الخناجر تتصارع . اني مصابة بالغـيرة ولكن خصوصاً ، خصوصاً . . . وجعلت تتنفس بأسرع مما ينبغي ، فأخذت تلهث . لم يكن صحيحاً إذن انـه كان بتلك الحكة والفرح وان اشعاعه الخاص كان يكفيه ! ذلك السرّ الذي كانت تأخذ على نفسها انها لم تُحسِن اكتشافه ربمـا كان بعد كل حساب غير موجود أصلاً . إنه لم يكن موجوداً : فهي تعرف ذلك منذ زيارة اليونان . لقد كنت « خائبة » ؛ كانت الكلمة تطعنها .

وشدّت المنديل على اسنانها كا لتحجب الصرخة التي كانت غير قـادرة على اطلاقها لقد خاب املي وأنا على حق في ذلك . « انـك لا تتصورين السرور الذي حدث له من جرّاء ذلك ! » . وهو : « انها تفهمني افضل من السابق » . لقد أحس نفسه مُمَلـِّقاً . « مُملـِّق » هو الذي كان ينظر الى العـــالم من عل بلا مبالاة باسمة ، وهو الذي كان يعرف لا جدوى كل شيء ، وقد وجد الصفـــاء والهدوء فيما وراء اليأس . هو الذي لم يكن ليتزعزع ، سيتحدث في هذه الاذاعة التي كان يتهمهـا بالكذب والعبودية . انـه لم يكن من نوع آخر . ولو تحدثتُ في ذلك الى مونا ، لقالت لي : « ماذا تريدين ! ؟ انهما قطرتا ماء » .

وراودها النعاس ، وهي مرهقة . وحين فتحت عينيها ، كان جان – شارل حاضراً .

– يا حبيبتي . لا بدّ اطلاقاً من ان تقبلي رؤية الطبيب .

– لأي شيء ؟

- سيتحدث معك ؛ وسيساعدك على فهم ما يجري معك .

فانتفضت :

- كلا . على الاطلاق . لن ادعهم يتلاعبون بي .

وصاحت :

- كلا ! كلا !

- هدئي روعك !

وسقطت ثانية على وسادتها . سيقسرونها على ان تأكل ، وسيجعلونها تبتلع كل شيء ، كل ماذا ؟ كل ما تقيئه ، حياتها ، حياة الآخرين بغرامياتهم المزيفة ، وقصصهم المالية ، وأكاذيبهم . انهم سيشفونها من رفوضها ، من يأسها . لا . لماذا ؟ هذا الخلد الذي يفتح عينيه ويرى ان كل شيء مظلم . ماذا يجديه ذلك ؟ الأفضل ان يغلق عينيه من جديد . وكاترين ؟ أينبغي اغماض جفنيها ؟ « كلا » . لقد صاحت بصوت مرتفع . لا كاترين . لن اسمح بان يفعلوا بها ما فعلوا بي . ماذا فعلوا بي ؟ هذه المرأة التي لا تحب أحداً ، ولا تحس جمالات العالم ، بل هي عاجزة حتى عن البكاء ، هذه المرأة التي اقيؤها . اما كاترين : فيجب على العكس ان افتح عينيها فوراً ، فلعل شعاعاً من نور يتسرّب اليها ولعلها تنجو من ذلك ... مِمّ ؟ من هذا الليل . من الجهل . من اللامبالاة . كاترين ... وانتصبت فجأة :

- لن يفعلوا بها ما فعلوا بي .

- هدّئي روعك .

وأخذ جان - شارل معصمها ، وكان بصره يترنح كما لو انـه كان يريد النجدة ؛ كان اي امر طارىء يكفي لبث الذعر في نفسه ، هو المعروف بتسلطه وشدة ثقته بانه على حق .

- انني لن اهـدأ . لا اريد طبيباً . انكم انتم الذين تجعلونني مريضـة . وسأشفى من تلقاء نفسي لأنني لن استسلم لكم . لن اخضع لكم بصدد كاترين . لقد كنت أنا خاسرة ، مضلـَّلـَة . انني كذلك . وسأبقى كذلك . امـا هي ، فلن يشوّهوها . انني لا أريد ان تُحرَم من صديقتها . أريد ان تقضي عطلتهـا

في بيت بريجيت . وهي لن ترى عالمة النفس تلك .

وقذفت لورانس الغطاء عنها ، ثم نهضت ، فارتدت ثوباً طويـــلاً ونظرُ جان – شارل المذعور مسمّر عليها .

– لا تستدعِ الطبيب . فأنا لا اهذي. كل ما هنالك انني اقول ما أعتقد به . اوه . لا تكن لك هذه الهيئة !

– انني لا افهم شيئاً مما تروين .

وبذلت لورانس جهداً واتخذت لهجة متعقلة .

– الامر بسيط . انني أنا التي اهتم بكاترين . أمـــا أنت فتتدخل بين الحين والحين . ولكنني أنا التي اربيها ، وعليّ انا تقع مسؤولية اتخـــاذ القرارات . وأنا اتخذها . ان تربية طفلة لا تعني ان نجعل منها صورة جميلة .

كان صوت لورانس يعلو بالرغم منهـا . وكانت تتكلم وتتكلم ولا تدري بالضبط ما تقول ، ما يهمّ ؟ المهم ان تصرخ باعلى مما يصرخ جان – شارل وجميع الآخرين ، وان تحيلهم الى الصمت . وكان قلبها يخفق شديداً وعيناها تحترقان .

– لقد اتخذت قراراتي ، ولن استسلم .

وكان جان – شارل يبدو اكثر فأكثر مذهولاً ؛ وقد تمتم بلهجة مهدّئة :

– لماذا لم تقولي لي ذلك كله من قبل ؟ ما كنت بحـــاجة الى ان تصبحي مريضة ولم أكن اعرف ان قلبك يهتم هذا الاهتمام كله بهذه الحكاية .

– قلبي ، نعم ؛ ربما لم يكن لي من قلب بعد . ولكن هذه الحكاية يهتم بها قلبي .

ونظرت اليه ، في عينيه مجابهة ، فأدار رأسه :

– كان عليك أن تحدّثيني من قبل .

– ربما . وعلى كل حال ، انتهى الأمر الآن .

وكان جان – شارل عنيداً ؛ ولكن هذه الصداقـة بين كاترين وبريجيت لم يكن يحملها حقاً على محمل الجد ؛ ان هذه القضية كلها هي أكثر طفولية من ان تعنيه حقاً . ولم يكن الامر يسيراً منذ خمسة أعوام ، وهـو غير راغب في أن

المحطّم من جديد . فاذا صمدتُ ربحتُ .

ـ اذا كنت تريد الحرب ، فلتكن الحرب .

فهزّ كتفيه :

ـ الحرب بيننا ؟ من تظنّين انك تكلمين ؟

ـ لا أدري . ان هذا متوقف عليك .

فقال جان شارل :

ـ انني لم اعاكسك قط .

وفكر :

ـ من الصحيح انك تهتمّين أكثر مني كثيراً بـكاترين ؛ وعليك انت في آخر المطاف ان تقرري . وأنا لم أدّعِ عكس ذلك قط .

وأضاف في لهجة استياء :

ـ كان كل شيء يكون اسهل لو انك أوضحت موقفك منذ البدء .

وانتزعت بسمة :

ـ كنتُ على خطأ . وأنا أيضاً لا أحب أن أعاكسك .

وصمتا . ثم استطردت :

ـ لقد اتفقنا اذن ؟. ان كاترين ستقضي عطلتها في منزل بريجيت ؟

ـ اذا كان هذا ما تريدين ، فليكن .

ـ نعم .

ومرّحت لورانس شعرها وأعادت تزيين وجهها بعض الشيء . وفكّرت وهي تنظر الى صورتها ، وكانت ممتقعة بعض الشيء ، مشدودة الملامح : لقد تمت اللعبة بالنسبة الي . اما الطفلتان فسيكون لهما حظهما : ايّ حظّ ؟ هذا ما لا تعرفه كذلك .